

انيليز هورير

نُورُ الْمَسَاءِ فِي الْإِسْلَامِ

74

دار الروائع - بيروت

آتيليو غوريو

تُورَةُ النِّسَاءِ

في الإسلام

تأليف

لماذا نشرنا هذا الكتاب

يعجّ العالم اليوم بألوان من الثورات الفكرية والاجتماعية والسياسية تأهباً للدخول في مرحلة استقرار وطمأنينة . ونصيب العالم الاسلامي من هذه الثورات وافر وافٍ . ونصيب المرأة الشرقية أوفر وأوفى ، ذلك لما لحق بالمرأة طيوال تاريخ الشرق من أذى واضطهاد ولما آلمها من كبتٍ وحرمان . وإظهاراً لحقيقة ثورة النساء بدوافعها الكثيرة ومظاهرها المختلفة ، آثرنا ترجمة هذا الكتاب الذي يتحدث فيه مؤلفه الايطالي عما شاهده بنفسه من أحوال المرأة الشرقية ، وعما اختبره ، وعما عرفه من مختلف المصادر التي بلغ اليها علمه وذلك توفيراً للقائدة التي يمكننا الحصول عليها من اطلاعنا على آراء الأجانب في أوضاع الشرق . ثم إننا توخينا الأمانة التامة في نقل آراء الكاتب الأوروبي محافظة على شرف المعرفة وعلى كرامة الرأي ، ثم على أسلوب الأجانب

جميع الحقوق محفوظة لـ « دار الروائع »

بيروت ص. ب. ٤٧٥١

في تحليل قضايانا وتعليقها ، تاركين للقارىء تقدير خطأ المؤلف حيث يخطئ ، وتقدير إصابته حيث يصيب .

ويسرنا أن يكون هذا المؤلف الأوروبي قد فهم ما أراده القرآن الكريم للمرأة من خير ، وأنه استطاع أن يربط العقائد والتشريعات بظروفها الخاصة وبروحها ويفرق بين جوهر الاسلام وما رسب على جوانبه من عمل الأزمنة المتأخرة . وعلى كل حال ، فللقارىء وحده الحكم على شخصية هذا الكتاب .

*

اختباران ذاتيان

نحن في عام ١٩٤٩ وما زالت أشباح الحرب السوداء تتجدى شمس السلام . كانت مدينة طنجة أفضل بقعة على هذه الأرض المضطربة المضرجة بالدماء لمراقبة سير الأحداث والحكم عليها . إن جوّ هذه المدينة التي وصلتها قبل زمن يسير مقعم بضروب الاحتلال والنصب والتهريب والمؤامرات ، مليء بالذهب والبؤس البشري في آن واحد . وهذا الميناء المفتوح هو محط أنظار الكثيرين من المغرورين الذين حشوا رؤوسهم بالأوهام والأباطيل وجاؤوا يحملون بثروات سهلة المنال و « إلدرا دو » جديدة . ثم لم يلبثوا بعد زمن قصير أن اصطدموا بالواقع المرير يلي الأحلام الجميلة فندموا على ما خسروه وعادوا من حيث أتوا . ويشعر المرء الى جانب هذا كله ببوادير ثورة تضطرم وتتأجج في اوساط الشعب . فقد ولى الى غير رجعة زمن تقوى الأوربيين على سكان البلاد وبدأت الأمور تسير من سيء الى أسوأ بالنسبة للأوروبيين وعلى العكس بالنسبة للوطنيين . ولأول مرة أخذ الفرد الأوروبي القادم حديثاً وفي نيته التصرف كسيد البلاد يشعر بانقباض لدى احتكاكه بالسكان الذين بدأوا يعاملونه بلا

وجل ولا احترام بل بصبر نافذ فقط - هذا إذا لم يظهروا له
استياء شديداً . لم تعد طنجة والمغرب بأسره مكاناً يرتع فيه
المغامرون وأصحاب الملايين الماربون من دفع الضرائب ، إنما
الآن ملك لجميع أولئك الذين ولدوا في هذه الأرض الطيبة
الحلابة والذين كانوا موضع ازدراء الأجانب واحتقارهم طيلة
اربعين عاماً .

كانت هذه الحقيقة الغريبة الجديدة التي أدخلت الرعب في
قلوب الكثيرين من الأوروبيين مشجعة لي . كنت أشعر في دخيلة
نفسي بأني أخ لجميع أولئك الذين يريدون دفن الماضي القاتم
والعيش قريباً من متطلبات المستقبل . لم يكن بوسعي ان أتسلح
بالأنانية البائسة لأنكر وجود الحق والمنطق في جانب أولئك
الذين تحملوا طيلة جيل كامل وفي صميم بلادهم إهانات مذلة
سمعوها بلغات لا يفهمون لها معنى ، بالرغم من إعجابي بعظمة
بلادي أوروبا وعبقريتها .

أما الآن وقد طفع الكيل « وقد آن له ان يطفع » فسيُعتبر
هؤلاء الذين يناضلون في سبيل استقلالهم خارجين على القانون في
نظر فريق ووطنيين مخلصين في نظر فريق آخر .

اقترح علي بعض الزعماء السياسيين والدينيين ان أعلم الفرنسية
والتاريخ والجغرافيا والآداب الأوروبية في معهد عربي بطنجة .
وكان مدير المعهد شاعراً معروفاً نشر عدة مؤلفات باللغة العربية ،
وقد أفادني ما تبادلت معه من أحاديث ودية من حيث المعلومات
الضرورية التي أعطاني إياها والتي لا غنى لأحد عنها لمعرفة العالم

الاسلامي على حقيقته . وقد مكنته ثقافته الواعية وأفكاره
التقدمية من تطوير النشر الجديد بسرعة بواسطة مناهج تربوية
جديدة ومن إيجاد حل لمشكلة مزمنة في غاية الدقة والتعقيد هي
مشكلة تحرر المرأة المسلمة .

تمكنت من الإقامة في مقر رابطة الشبان الكشفيين المسلمين ،
ذات الاتجاه الوطني ، وكانت قد اتخذت لها مقراً في القلعة القديمة
المشرقة على طنجة وخليجها الدولي . وفي صباح كل يوم كنت
أرى العلم المغربي الوطني بنجمته الشريفة الخضراء وقاعه الأحمر
يرتفع على سارية القلعة . كان اليوم الذي تعرفت فيه الى مدير
المعهد وبدأت عملي الجديد فيه هو الاول من خمسة وتسعين يوماً
مكثتها في المدينة العربية بدون ان أرى أي رجل اوروبي أو
أتحدث معه . كنت أول مسيحي يدخل الى صفوف هذا المعهد
الاسلامي وهذا ما دعا التلاميذ للتطلع الي بدهشة . وقد لحث
لأول وهلة في وميض عيونهم وبريقها الرغبة في المعرفة وبوادر
ذكاء مبكر سيسمح للمغربيين بنيل انتصارات كبيرة في سباق
الانسانية الثقافي . فهم يعلمون جميعاً بأن عليهم اللحاق عاجلاً
بالركب الزاحف .

لم يكن أحد منهم يتكلم الفرنسية أو يقرأها جيداً ، ومع
هذا فقد تمكنت بعد مرور اثني عشر درساً ألقيتها دون الاستعانة
باللغة العربية من جعلهم يتابعون دروس الأدب والتاريخ
والجغرافيا بسهولة تامة .

كان اليوم الاول الذي رافقني فيه المدير الى صفوف الفتيات

مضحكاً، إذ ما كدن يلمعني حتى سارعن الى إزال الحجاب على وجوههن. وفي كل مرة دخلت فيها الى الصف وسألت إحداهن عن موضوع الدرس احرّ وجهها، أو بالاحرى الجزء الظاهر منه، وتمت أجوبة يستحيل فهمها.

تخيّلت في بادىء الامر أن لا سبيل للتغلب على هذا المركّب النسائي، ولكنني لاحظت بعد مدة لا تزيد عن الاسبوع ان تلك الفتيات يستوعبن دروسي جيداً ويحاولن إتقان الفروض التي كنّ يقدمنها لي صباح كل يوم لتصلحها ووضع العلامة المستحقة عليها.

حاولت في نهاية الاسبوع الثاني ان أستغلّ هذا الاتصال القائم بيننا وهذه الثقة المتبادلة لأقدم على محاولة ثورية جريئة. فكتبت على اللوح بأحرف بارزة جملة فرنسية أنهيها بعلامة تعجب وهي: « إن فتاة المغرب الحرّ لن تخجل من الظهور بوجه سافر! » كتبت الفتيات العبارة وكأن شيئاً ما لم يحدث وحملن أوراقهن الى البيت. ولدى دخولهن الصف في صبيحة اليوم الثاني، كانت هناك سبع فتيات محجبات فقط على مجموع تسعة وستين. أما الباقيات فكانت سافرات وقد ألفت كل واحدة منهنّ بقبّعة لحافها الابيض على كتفها فبان شعرها الاسود الجميل.

كان الفتيان يدعونني في كل يوم جمعة، يوم الراحة عند المسلمين، لتناول « الكُسكُس » وهو الطبق الوطني في بيوتهم. فكنت أستقبل في كل مرة ببالغ الترحاب من قبل ذويهم الذين كانوا يطرون بلدي إيطاليا وسكانها. وكم كان سرورهم بالغاً

عندما لاحظوا ما كنت ابذله من جهود لكي أعبّر عن أفكارى باللغة العربية ولعدم محاولتي إظهار أي احتقار لعاداتهم الشرقية المختلفة كل الاختلاف عن عاداتنا.

ولم أتردد منذ الزيارة الاولى من الجلوس على الارض وإشباك قدمي ببعضهما وتناول الطعام بأصابعي. ولم أكن أظهر أي استمزاز عندما كان مضيفي يتجشأ أو ينظف أنفه بأصابعه ثم ينفذ مخاطه بالقرب من الحيز أو طبق « الكُسكُس » لعلمي بأن هذه العادات التي نشئ منها لها ما يبررها بالنسبة إليهم « ولا أعتقد ان أحداً من الفلاسفة قد برهن بصورة جازمة أين تكمن الحقيقة في هذه الامور ».

وكثيراً ما كنت أطلع، في أمسيات أيام العطلة، على أوجه نشاط الكشفيين في القلعة. كان الطلبة ينظمون الحفلات ومشاريع الرحلات الى خارج طنجة، وينشدون الاناشيد الوطنية. ثم يجتمعون عند الغروب في صفوف عسكرية لتأدية التحية أثناء إزال العلم. فكانت النجمة الشريفة تنزل عن سارية البرج بينما تهتف عشرات الاصوات الحماسية: « عاش السلطان، عاش الاستقلال! ».

كان البعض من تلاميذي يجد صعوبة في فهم الدروس ومنهم واحد من البربر اسمه هاشم. والغريب في أمره أنه بقدر ما كنت ألومه لتأخره في دروسه بقدر ما كان تعلقه بي يزداد. ويمكن القول بأنه كان مثال فتى الجبال القوي يشير الضحك والسخرية لدى رفاقه لرداءة لفظه الكلمات العربية.

كان هاشم يأتي إليّ في فترات الاستراحة عندما يجلس الطلاب في الملعب ليتحدثوا أو يخرجون لتناول الشاي مع النعنع، ويجاول ان يترجم لي بلغة فرنسية ركيكة أغاني وأساطير قبيلته ويحدثني بنوع خاص عن عبد الكريم وحركته في الريف . فبالنسبة لهاشم كما هي الحال بالنسبة لسكان الجبال البوبر، ليس لسلطان المغرب سوى معنى رمزي غامض ، وكذلك لم يكن ليعرف شيئاً عن مكانة رجالات الاحزاب السياسية المغربية الحاليين وعن أعمالهم . وكان يقول لي في هذا الشأن : « إنهم جميعاً أعداؤنا : العرب كالفرنسيين ، واليهود كالاسبانيين . إننا لا نريد أحداً وسيدنا الوحيد هو الله » ولم يكن ليخطر ببالي حينذاك أنني سأقوم بنفسي بعد بضعة شهور بتجربة في غاية الطرافة كادت تتحول الى مأساة تتعلق بعادات البوبر القبلية وخشونتهم المتوارثة .

استمرت حياتي في طنجة تسير على غط حياة السكان الوطنيين وتزداد تقرباً منها حتى ان بعض تلامذتي الناضجين اعتبروني واحداً منهم وقدموا لي « صديقاتهم الصغيرات » . وتمكنت بعد انقضاء شهرين على إقامتي في طنجة من إقامة علاقات طيبة في أكثر مجالس الحياة الليلية حيث كان زعماء الحركة الوطنية في سبيل الاستقلال يلتقون ويعقدون اجتماعاتهم . لم يكن النضال المسلح ضد الاوروبيين قد بدأ بعد ، ولكن المرء كان يشتم طلابه القريبة .

وكم كانت دهشتي عظيمة عندما تبينت ما لدى النساء الوطنيات من حماس وروح ثورية بالرغم من مظهر الجهل والتكتم الذي

يبدو عليهن . فقد حدث عندما رويت لتلميذاتي وهن بين الحادية عشرة والثانية عشرة قصة ثورة النساء الاسبانيات في الثاني من أيار سنة ١٨٠٥ ضد قوات الاحتلال النابوليونية أن انفجرن جميعاً كالبارود في حماسة وطنية بالغة . وأخرجت إحداهن ، وكانت قد هربت من الجزء المغربي الخاضع للاحتلال الفرنسي حيث قتلت الفرقة الاجنبية أباه وأخاها ابان اصطدامات فاس ، أخرجت من لحافها الابيض صورة للأميرة عائشة كبرى كريمات السلطان محمد ابن يوسف وصرخت بأعلى صوتها : « إذا أرادت هي ذلك فنحن مستعدات للقيام بعمل مماثل » . واقتربت مني خلال فترة الاستراحة فتاة أخرى وسألني عما إذا كان بإمكانها الحصول على صورة لغاريبالدي ، ولكن بدون لحية الطويلة الحمراء ... مما يدل على مقدرة النساء المسلمات على النظر إلى الرجال كباقى بنات جنسهن نظرة فيها الكثير من اللباقة والحس بالجمال !

اعتقدت بعد ازدياد الروابط بيني وبين تلميذاتي وتوثقها بأن الفرصة قد حانت لانشاء رابطة لطالبات طنجة من أهدافها أن تجتمع مدة ساعة واحدة في كل يوم بعد انتهاء الدروس وتتبادل الآراء حول مختلف شؤون الساعة سواء فيما يتعلق بالحياة الخاصة المدرسية والشخصية لكل فتاة أو بحياة البلاد العامة والسياسية . وقد تمكنت بواسطة هذه المناقشات من إقناع تلك الفتيات بأنهن متساويات تماماً مع الرجل في إمكانياتهن العقلية ، وزاد في إقناعهن كون محدثن من الرجال ! وبالإضافة الى هذا تكونت في أذهانهن لأول مرة فكرة واضحة عن ماهية الانوثة في بلاد

الغرب . وتحقق بصورة لاشعورية بعد أن رأين رجلاً غريباً غير عربي ، وتحدثن إليه وهن صافرات ، والتقت نظراتهن بنظراته ، وانسجمن في الضحك معه ، من قصة طريفة واحدة ، أن بوسع الفتاة ، وإن كانت عربية ، أن تثير لدى قريبها ، وإن كان من الجنس الآخر ، فضولاً إنسانياً مجرداً قد يقضي في النتيجة إلى فضول عاطفي . إن حق المرأة في التعبير عن عواطفها بحرية هو المفهوم الذي كانت تلك الفتيات يبحثن عنه في دوامة تفكيرهن بعد أن تحققت أن مجتمعهن ورجالهن يرفضون الاعتراف بطريقة عنيفة ومنافية لمتطلبات الحياة الانسانية بهذا المطلب الأساسي الذي هو في صميم طبيعة المرأة . وتبين أن مجرد اختلاف بنيتهن عن بنية الرجل لا يعني أبداً أنهن مجرد أداة لا شكل لها ولا إحساس ، خلقت لتشبع رغبات الرجل وشهوانيته ولتقوم ببعض الاعمال التافهة ، كما تبين أن دورهن كزوجات وأمهات يرفعهن إلى مرتبة أعلى من مرتبة الحيوان التي دفعن إليها دفعا .

لقد انتباهي من بين جميع الفتيات واحدة كانت تحضر اجتماعاتنا وتصغي بانتباه تام إلى أحاديثنا ولكنها بقيت مصرة على عدم نزع حجابها أو الاشتراك مباشرة في مناقشاتنا . فقررت ذات يوم أن أعهد إلى أجراء فتاة بين تلميذاتي وأنجبهن وهي ابنة تاجر سجاد كبير لكي تستفسر هذه الفتاة الغامضة عن أمرها . كانت من البربر كزميلها هاشم تنتمي إلى قبائل الرقيبات الضاربة في جنوب المغرب ، والتي قمت بتحريريات عن تاريخها بعد بضع سنوات خلال دراستي لسكان الصحراء . وهناك اشتراها

تاجر غني من العراش وهي مدينة صغيرة على ساحل المغرب الخاضع للاحتلال الاسباني » وأقول اشتراها بالرغم من أن الزواج قد تم حسب الاحكام المرعية .

وتعرضت فور وصولها لمنزلها الجديد لأقذع الشتائم والسخريات من ضرائها الاخريات لكونها أصبحت الزوجة المفضلة لرب البيت يقضي معها لياليه دونهن بما جعلهن يتأكلن غيره منها وغضباً عليها . وقد احتارت الزوجة الصغيرة المسكينة في أمرها وهي التي تعودت على الحياة الحرة الكريمة في منزلها الابوي . وقررت ذات ليلة بعد أن نفذ صبرها أن تشكو أمرها إلى زوجها عليه ينقذها من هذا المأزق . ولكنها اصطدمت بعقليته الغليظة المتحجرة ، وبدلاً من أن يحاول فهمها بادرها بصوت ملؤه الاحتقار : « لقد وجدتكِ في قبيلة بدائية متأخرة ، فإذا أصرت على التدمير من مجرى الامور في منزلي الذي ما كنت لتدخله لولا تعرفي إلى أهلِكَ ، فسوف أرجعكِ إليهم » . ولم تدعه الفتاة يكرر كلامه مرة ثانية إذ كان جل ما تطلب هو أن يعيدها زوجها إلى حياة الحرية والطبيعة التي كانت تحياها بين أفراد عشيرتها .

ولكن هذا الطلب الجريء كان يساوي بالنسبة للعادات المتزمته خروجاً عن طاعة الزوج ومنتقصاً من كبريائه . بما دعا الزوج إلى أن ينهض في الليل ويلقنها درساً لن تنساه بحضور زوجاته الاخريات وهذا ما كن يرتحن لرؤيته . وفي صباح اليوم التالي كانت المسكينة في حالة يرثى لها لكثرة ما أصابها من

الروض والندوب .

واستمرت هذه الحياة المستحيلة طيلة عامين لم تحاول الزوجة الشابة ان تبدل موقفها خلالها وكذلك كان شأن الزوج وباقي نساءه حتى قرّ عزمها على الهرب . لم تكن تعلم بالضبط الى أي مكان تلتجئ ، ولكنها صممت في جميع الاحوال على الخروج من هذا الجحيم .

*

وبالفعل تركت المنزل ذات يوم كاشفة الوجه مرتدية الزي الاوروي لاعتقادها الساذج ان الشرطة لن تعترض سبيلها إذا ما وأنها على هذا الشكل ، وتوجهت دون ان تأخذ معها شيئاً من النقود أو المتاع نحو تطوان عاصمة المغرب الاسباني . وما كادت تشرف على ضواحي العاصمة بعد مسير مضني طيلة يومين كاملين حتى اعتقلتها دورية من الشرطة المغربية كانت تجوب المنطقة . كانت منهكة القوى ولم تتردد من رواية قصتها بمخاديفها في مركز الشرطة . كان طلبها الوحيد أن تعاد إلى منزل ذويها . ولكن المفوض سارع إلى سجنها لمدة ثلاثة أيام كعقاب لها على فرارها ولخالفها التقاليد الدينية ولم يخطر بباله أبداً ان يلبي نداء ضميره ويجد حلاً إنسانياً معقولاً لمشكلتها . وقضت الفتاة وقتها في السجن تبكي وهي في حالة جسدية ونفسية يرثى لها .

وفي اليوم الثالث دخل عليها المفوض وقال لها : « إن مسألة إرجاعك الى ذويك غير واردة خاصة وان قبائل الرقيبات تقطن خارج حدود المملكة الشريفة . وبما ان زوجك قد دفع لأهلك

بأثمة تفوق ما تستحقينه فقد قررنا ان نعيدك إليه بعد ان أبلغنا منذ لحظات عن هربك » . فارتعت الفتاة على قدمي المفوض قائلة إنها تفضل الموت على العودة إلى جحيم حريم زوجها . وعند ذلك عرض عليها المفوض صفقة عجيبة إذ خيّرهما بين العودة إلى زوجها أو الإقامة في أحد بيوت اللذة في تطوان . فقبلت الفتاة الحل الأخير على الفور بالرغم من جهلها ما سيحدث لها فيه . فكل ما يهمها هو ان لا تعود من حيث أتت . في نفس الليلة وصلت إلى المركز امرأة عجوز فأعطت الفتاة برقعاً لتستر وجهها واقتادتها بصمت في أزقة تطوان المعتمة إلى « منزلها » .

لم تنفر كريمة من هذا المنزل الجديد إذ كان استقبال رفيقاتها لها أفضل بكثير من استقبال ضرائها السابقات . فتعلمت أن تقدم الشاي للزبائن وتوفر لهم الراحة على الوسادات الناعمة بينما تغني باقي الفتيات ويرقصن ويعزفن على آلات الطرب . وتعلمت كذلك حقيقة « عملها » الرئيسي . واعتقدت في صداقتها البريئة أنه لا بد ان يأتي يوم يتقدم منها شاب وسيم من بين هؤلاء « الزبائن » يفهم وضعها على حقيقته ويخرجها من هذا المحيط المتأخر الذي تعيش فيه ويتزوجها ، شرط ان لا يكون من هواة الحريم وان لا يعاملها بعنف .. كانت تشعر في دخيلة نفسها أنها ستقوم بالمستحيل في سبيل الرجل الذي يضيف على حياتها شيئاً من البهجة والحنان . وبالطبع ، لم يكن بوسعها التعبير عما كان يجول برأسها من خواطر تتناقض مع العادات التقليدية وعقيلة المحيط الذي تعيش فيه .

وحدث ذات مساء ان التقت بشاب يدلّ مظهره على انتمائه للطبقة الراقية تمكن من فهم السرّ الذي كانت تخفيه وراء نظراتها وعرف أنها فتاة لا تشبه زميلاتها في شيء . وفي الواقع ، كان هذا الشاب أحد أبناء زعيم حكومي بارز ومعروفاً بسعة تفكيره وبأنه من خريجي جامعة غرناطة . وقد أمر بإعطائه غرفة خاصة لقضاء الليل مع المرأة الشابة . وعندما اختلى بها سألتها عن أمرها فروت له قصتها الكاملة . ولدى مفارقتها لها قطع لها وعداً بالعمل على إخراجها من المكان الذي تعيش فيه . وكان صادقاً في وعده إذ اصطحبها معه بعد أسبوع إلى منزل والديه وسألها ان تساعد والدته في الأعمال المنزلية وأن تداوم على الدراسة حتى تتعلم القراءة والكتابة . قبلت الفتاة هذا العرض والسرور يملأ قلبها ، وتمكنت لفرط ذكائها من اللحاق برفيقاتها في المدرسة والتعويض عن الوقت الذي خسرتة . ولدى نيلها الشهادة الابتدائية في سن الخامسة عشرة استطاع والد الشاب الذي نقل حديثاً إلى إدارة التعليم أن يرسلها إلى معهد طنجة لتكمل دروسها على نفقته .

كان زوجها في تلك الاثناء قد قبل بتطليقها مقابل مبلغ محترم فأصبحت طليقة من كل القيود وخطبت إلى منقذها الذي وعد بعقد قرانه عليها في يوم تخرجها من المعهد الديني ، على أن لا يتزوج واحدة غيرها . كان الشاب ووالده مصممين على ان يجعلها منها امرأة عصرية متعلمة تصبح فيما بعد مساعدة لزوجها ومرشدة له .

وما هيئنا معرفته هو أن هذه البدوية الصغيرة تمكنت بقوة

شخصيتها من اجتياز عتبة التقاليد المتجسّرة والاعتقادات القديمة المتزمتة والتحرر منها . وقد كنت أرى من ناحيتي في فرض الزواج فرضاً على الفتاة تقليداً ، من أقبح تقاليد العالم الشرقي . وأعتقد ان ثورة فتيات اليوم تهدف خاصة إلى القضاء عليه . وقد أكّد لي ذلك حادث مؤسف آخر اطلعت عليه بذاتي بعد انتهاء السنة المدرسية .

*

قبلت دعوة هاشم لزيارة أهله والتعرف الى قريته الريفية وعشيرته . كانت بيوت القرية المتناثرة على المرتفعات الصخرية مبنية بالطين اليابس وسعف النخل . وكان بيت هاشم حيث نزلت يقع بالقرب من مدخل حيّ البربر وراء أنقاض حصن قديم وهو مربع الشكل يتألف من طابقين كسائر بيوت القرية مع باحة ترابية مبهدة تجتمع فيها النسوة ويثرثن من بزوغ الشمس حتى غروبها . كان والد هاشم تاجراً يستورد البلع من واحات الجنوب وكانت له ثلاث نسوة كغيره من الشيوخ العرب . أما زوجته الأخيرة ، وهي صاحبة الخطوة بالطبع ، فكانت تقدمه له من أخيه الذي قبلها بدوره كنسوة لنزاع سياسي دموي . وكانت تسكن مع تلك النسوة فتاة تدعى كريمة وهي ابنة شقيق صاحب المنزل ، وذلك أثناء غياب والدها الذي سافر في فصل الربيع مع القوافل الى البادية . وكانت تنتظر رجوعه في أواخر أيار لعقد قرانها على نجل كبير قضاة القرية البالغ الخامسة عشرة من عمره (وكان القاضي من أشدّ المتسكين بأحكام الشريعة) .

وخطر لي ان أسأل هاشما عن السبب في عدم زواجه وقد بلغ السادسة عشرة من عمره ، فاحمرّ خجلاً وأجابني : لا حاجة لي إلى ذلك ، فقد حجز لي والذي ائتمن من البوبر بأنحس ثمن . ولكن برّبك لا تخبر أحداً بذلك لئلا يصيبها مكروه . وطبيعي أنني لم اخبر أحداً لأن هاشما هو الشخص الوحيد في القرية الذي أحدثه .

وبعد بضعة أيام أسرّ صديقي في أذني ان كريمة تتكلم اللغة الاسبانية جيداً وأنه هو الذي علمها إياها طيلة ثلاث سنين لأنها أسطع نجمة في الريف ، وقد بعث فيّ هذا الوصف رغبة في رؤية وجهها خاصة وقد سمعت الكثير عن جمالها . ولكن أنى لي ذلك والنساء محظور عليهنّ السفر او حتى المكوث مع الرجال ؟ ومنيت نفسي برؤيتها في يوم زفافها جاهلاً انه لن يسمح لها بالكشف عن وجهها حتى في مناسبة كهذه .

وبينما كنا نتناول طبق « الكُسكُس » التقليدي ذات مساء ابتدري هاشم كمن صعب عليه فهم مشكلة هندسية قائلاً : « أخبرني يا سيدي كيف تستطيع البقاء بدون نساء مدة طويلة كهذه ؟ » فأجبتة وقد فوجئت بكلامه ، وكان لا يحجل أنني أعزب ، بأنني لا أنوي الإقدام على الزواج في هذا الظرف لاعتقادي بأن العزوبة هي ضمانتي الوحيدة للمحافظة على حريتي ، تماماً كما هي الجمهورية بالنسبة لحرية الشعوب ، خاصة وأنني مقبل على دراسات واسعة لا تترك لي وقتاً للتفكير بشيء آخر . ولكن جوازي الواضح هذا لم يكن ليقتنع هاشم بصحة اعتقادي فأضاف : « إنني

أعلم انك لا تملك جملاً او قطيعاً لتدفع البائنة ! وكنت أودّ ان أطلب من والدي ان يشتري لك امرأة وهو على استعداد لأن يضحي بأحسن ناقة عنده لهذا الغرض ، ولكنك غير مؤمن مع الأسف ولا يمكن أن نبعث لك عن الفتيات الصالحات للزواج . ثم غمس أصابعه الغليظة في طبق « الكُسكُس » باحناً عن صيد ثمن من العظم المكتنز، فقلت له : « حفظك الله ياهاشم فأنت رجل كريم » فأجابني بلباقة : « الله أكبر » .

كنت ألمح من شق الباب ظلّ المائدة التي كانت تبدو كقطعة من الطيشور الابيض تحت ضوء قمر البادية المكنم . وبعد مرور ساعة على حديثنا كان سكون الليل يشمل القرية بأسرها وقد استغرق الرجال في نوم عميق في الباحات والشوارع وتحت شجر النخيل متدثرين ببرانسهم البيضاء . واستلقيت بدوري على سجادة جزائرية ناعمة هي أحسن ما في البيت وأخذت أفكر في الحديث الطريف الذي جرى على المائدة وأثار فيّ فضولاً فكرياً لاهتمامي بالحضارات القومية .

إن الضيافة عند هؤلاء الناس هي واجب مقدس وهم لا يتوانون عن حرمان أنفسهم ليوفروا لضييفهم الراحة التامة . وبشبه تصرف والد هاشم الذي فكر في التضحية بناقته ليشتري لي زوجة، رجلاً أوروبياً يسحب ودائعه من المصرف ليقدمها إلى ضيف غابر . والواقع ان هذا الرجل المعطاء لم يكن يتصور إمكانية البقاء بدون امرأة وهي أجمل هدية وهبها الله لنا، وإمكانية التضحية بلحظات هي من أمتع لحظات العمر . ولا يجد هذا

النهم الجنسي في مجتمع افريقيا أي رادع في العرف أو في التقليد : فالمرأة هي مرادف الجنس ولا يمكن إلا أن تكون كذلك ، هذا اذا لم تتحول إلى حيوان داجن . فهي لا تختلف في شيء عن غنمة أو حفنة شعير عندما تكون خارج السرير ، ولا تشابه مع الرجل إلا في لحظات الاستمتاع باللذة الحفية . أما في الحياة اليومية فعليها ، هي الجسد المجرد الوجه واللون ، ان تعاشر بنات جنسها كما ان على الرجل معاشره ابناؤه جنسه .

اشتد الحرّ مع قدوم شهر أيار فازدادت الأرض ييوساً وتشققاً حتى بدت كرقعة شاسعة من الورق المحروق ، وحان موعد إياب القوافل الصحراوية لتعذر سفرها ابان فصل الصيف ، واقترب موعد زفاف كريمة . كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق في بيت القاضي الجليل . وأخبرني هاشم بأن هذا الزواج سيكون من أروع وأضخم ما عرفه الريف فيأتي العازفون ويحضر المدعوون من تطوان وفاس . ومن الواضح ان كريمة لم تكن تعرف شيئاً عن زوجها كما لم يكن هو الآخر يعرف شيئاً عنها .

وحدث ان ذهبت مع هاشم إلى سوق القرية وخطر لي فيما كنا نتذوق بعض العسل ان أسأله عن رأيه في الخطيبة العتيقة ، فأعرب لي عن رضاه باقتضاب دون ان يبدو مقتنعاً بكلامه . ثم تجرأت وقد نسيت انني في افريقيا فسألته : « وهل تحب كريمة ابن القاضي هذا ؟ » فأطلق في وجهي ضحكة ساخنة ساخرة ، لا يتقنها سوى المغاربة ، وقال : « ياله من سؤال ؟ »

« لا يعلم سيدي ان الله لم يعط النساء حق التمتع بالحب ابداً ؟ » فأجبت : « في الواقع لقد نسيت ذلك يا هاشم ، فانه لم يُنعم على جميع عباده بالعقل والفطنة وهذا هو سبب جهلي » . فنظر إليّ نظرة جدية وقد لمعت عيناه ببريق الكبرياء ، ولم أعد أحدثه منذ تلك اللحظة عن زواج ابنة عمه .

ولكن شاء القدر أن يتبدّل مجرى الامور فأصبحت كريمة بوجع غريب في مفصل ساقها وذهبت لاستشارة الشيخ ، فنصحها هذا بالذهاب الى ينبوع العذارى بعد غروب الشمس حتى لا تصاب بداء الأرامل من جهة ولكي تتطهر قبل الزواج حسب التقاليد المتبعة من جهة ثانية . وبما انها كانت على وشك الزواج فإن الماء المقدس المسكوب على الجزء المريض كفيل بشفائها . وخرجت لوحدها إلى العين متجلبية بمختلف البواع الوردية اللون حاملة معها وعاء فارغاً لتبرّر خروجها . وحدث ان كنت عائداً الوادي الوسطي حيث كنت أذهب يومياً لدراسة بعض النقوش الأثرية على الصخور . لم أكن ابداً ، حتى الساعة ، قد رأيت وجه الفتاة ولم اكن لأتوقف لو لم تبادرني بحية . فوقفت حالاً بعد ان عرفتها وكانت منعنية على نبع الماء وقلت لها : « ألا تودين أن تكشفني لي عن وجهك يا مضيقتي العزيزة ونحن الآن بعيدون عن لانظار ؟ » فأجابت قائلة : « كما تشاء » . وأنزلت في الحال بوقعها وفتحت سترتها الزرقاء كاشفة بذلك لا عن وجهها فقط بل عن جسدها كله . فاجتاحني قشعريرة سريعة إذ بدت لي وكأنها إلهة صغيرة خرجت من قلب الصخور . كان كل ما فيها

يهر الناظر من شعرها الناعم الطويل إلى نهديها البارزين المستديرين إلى شفاها الجراء المتأججة إلى عينيها السوداوين ، حتى كدت أنسى ما تنعرض له من خطر لو وقعت علينا الأعين في تلك اللحظة . ولكن الأقمشة الحية كانت أسرع مني فسترتها من جديد .

أخبرتني كريمة بأنها تشعر بالآلام جسيمة مبرحة ولكنها لا تضاهي ألمها النفسي الذي يسببه لها زواجها من « ابن القاضي الجلف » كما دعت . وقد علمت فيما بعد أنه حاول وأد أخته الصغيرة لاعتباره أن ولادة أنثى في العائلة من شأنه أن يلطخ شرفها !

كنت أحلم لدى عودتي إلى بيت هاشم في الليلة التالية وأنا مفتوح العينين بجسد كريمة « نجمة الريف الساطعة » . كانت أقداح الشاي التي تقدم لي في منزل هاشم وغيره من البيوت تسبب لي عادة أرقاً شديداً ولكنني كنت أشعر في تلك الليلة بهدوء أعصاب غريب ورغبة في الكرى بعد التعب الشديد الذي سببه لي مسيري الطويل طوال وقت الظهيرة (كنت آنذاك قد أنهيت دراستي عن النقوش الأثرية وخصصت أوقات فراغي لزيارة دوائر المنطقة) . وكان القمر قد ارتفع عالياً في السماء حينما قطعت على سكوني فجأة وشوشة خفيفة خيل لي أنها آتية من خلف الحيمة التي تفصل بين غرفتي وسلم المنزل .

إن النوم بين البدر ليس مطمئناً لرجل أوروبي ولو كان صديقاً ويجب أن يتنبه دائماً لكل حركة خفية . وعليه ، فقد نهضت حالاً على قدمي وأنا أستعد لأي هجوم مباغت ، وما لبثت أن لمحت في العتبة شبحاً آدمياً تبيّنت فيه ملامح كريمة .

وقد اقتربت مني بدون تردد وتمددت على السجادة إلى جانبي مستسلمة لي تماماً كما لو كانت واحدة من حريمي ... فتمتعت في أذنهما : ولكن لماذا ؟ ... كان جوابها الوحيد أن التصقت بي بقوة . فتساءلت عما كانت تفكر فيه منذ أن التقيت بها لأول مرة ! وأفضت لي بهومها دون أن نكون على معرفة سابقة . وقلت في نفسي لا بد أن حاجتها اليأس إلى من يسعها ويفهمها ويحترم أعزّ عواطفها وأغنىها هي التي دفعها للقيام بهذه المغامرة الجريئة مع رجل أجنبي ! وبما لا ريب فيه أن كوني رجلاً يختلف عن الآخرين في لغته ولباسه وتصرفاته جعلها تعتقد بأن الفرصة قد واثت لتخرج من وجودها الانعزالي ولو لليلة واحدة . ثم خطر لي استنتاج آخر أشد غرابة وهو أنها كانت تريد أن تظهر عاطفتها نحو فتى فتقدم لي أنجس ما يوسع امرأة أفريقية أن تعطيه للرجل وأغلاه ، وهو أن تعطيهام نفسها ، تماماً كما تقدم لك الفتاة الأوروبية لفافة من التبغ أو قدحاً من الشاي .

ومهما يكن من أمر فقد قضيت على هذه السجادة الجزائرية في بيت هاشم ليلة ممتعة للغاية ... خيل لي أن الصباح أقبل باكراً في ذلك اليوم ، كانت كريمة قد انسلت منذ طلوع الفجر الأول من خلال الستار الدمقيسي الذي دخلت منه إلى غرفتي دون أن تخلف أي أثر وراءها . وعرفت بعد أن صحيت تماماً من نشوتي حقيقة السبب الذي حدا بها إلى الإقدام على عملها هذا : كانت الوسيلة الوحيدة لكي تخلص من زواجها البغيض هي أن تستسلم لرجل غريب ، فيصبح طلاقها من زوجها مباشرة بعد ليلة الزفاف

في حكم المؤكد ، لكون التقاليد هناك تقضي بأن تبلغ حفلة الزفاف ذروتها عندما يتقدم أحد أفراد عائلة العريس من جمهور المدعوين ويلقي بخرقة ملوثة بالدم العذري دلالة على محافظة العروس على بكرتها . والويل لكرمة إذا لم تتقيد بهذه القاعدة فإن صراخها وتوسلها وتهديدها لن يجديها فتيلاً إزاء والدها أو عمها أو حتى إزاء هاشم نفسه . أما الآن فهي واثقة بعد كل الذي حدث بأن زواجها البغيض لن يتم .

كان موعد رحيلي قد حان وقد فكرت حيناً بانتظار والد كريمة لأثنيه عن عزمه أو أقنعه بعاقبة تصرفه ولكن حذري وخبرتي عن افريقيا جعلتني أتخلى عن عزمي هذا . لم أر الفتاة أبداً فيما بعد بالرغم من رغبتني في ذلك . كان كل شيء معداً للرحيل في صباح اليوم الأول من أيار ، فجهز هاشم جملين بمساعدة بعض الرجال الذين كان عليهم مرافقتي الى أول مركز للفرقة الأجنبية حيث أستقل سيارة « الجيب » متوجهاً نحو قصور ، وملئت الكوفية بالنار والحبز المصنوع من الشعير والزيت وهو مرطب ومغذي في آن واحد . اعتليت ظهر أكبر الجملين وأنا أرتدي قبعتي وأحمل كيساً في عنقي وابتعدت بخطى وثيدة عن بيت هاشم . كنت بين الحين والآخر ألقي نظرة على باحة المنزل ، يحذوني أمل مستحيل برؤية كريمة عليها تظهر بقدرة خفية . كانت الحركة قد دبّت في الأسواق فامتلات بالبغال والجمال والكلاب والشحاذين والكتبة وأصحاب الحوانيت وصية الأزقة . وما لبثت أسوار الحي أن حجبت عن ناظري كل مشهد . وأخذ الجملان

يقطعان في الوديان العارية بسرعة متزايدة بينما تحول الدوار الى نقطة صفراء باهتة على قاع جبال الريف الكلسية . وهكذا انتهت مغامرتي العاطفية مع كريمة ، الفتاة ذات البرقع ..

بعد انقضاء شهر على وصولي الى طنجة جاءني هاشم مرتدياً قميصاً حريراً أنيقاً على الطريقة الأوروبية ومعتراً طربوشاً أحمر وكان يبدو كثيراً منكشراً الأسارير . كنت قد استيقظت قبل برهة وجيزة وجلست أستمع بنسيم البحر العابق ، فرجوته لدى وصوله ان يجلس على المقعد الوحيد في الغرفة ريثما أنتهي من ارتداء ملابسي . وما كاد يجلس حتى ابتدرني متوسلاً : « يا سيدي ان الله يعلم بواطن الأمور وليس بوسعك أن تكذب عليّ فاذا قلت لي الحقيقة أنقذتك » فتجدت موسى الخلاقة في يدي ووقفت جزعاً عاجزاً عن تصديق أذني . نظرت الى هاشم في المرأة وقلت له : « ما الذي أصابك ؟ هل سُرق لك جمل من الجمل ؟ » فأجابني بنبرات رتيبة يتقنها الشرفيون : « إن بكاراة كريمة قد فضت يا سيدي وكشفت البائسة عن وجهها لعيون غريبة ، وسلمت عذريتها لرجل أجنبي : هكذا قال الشيخ ، والله يعلم أن الشيخ لا يكذب . إن كريمة قد استسلمت لك يا سيدي في الدوار وسال دمها العذري الذي هو من حق زوجها على البساط الدنس ! » فأجبته بـ « نعم » فيها الكثير من الحق والتهجم مستهجنات تطبيق تقاليد غريبة عن تقاليد سيدي وطبعي . ولماذا أخفي اجتماعي الى تلك التي لم يحاول أحد فهمها واستماعي الى نداءها الذي لم يصغ إليه أحد ؟ ولكن للأسف الشديد علمت من هاشم أن

فنتائج اجتماعنا هذا كانت مفزعة إذ اقترب مني قائلاً : « إنك استاذي المفضل بين الجميع : فأنت تحب أميرنا العظيم بالرغم من أنك أوروبي ، وتحترم بلادنا بالرغم من أنك أجنبي . ولهذا فقد جئتك مسرعاً من هذا الريف القاسي الذي تعرفه لأنقذك : عليك بمغادرة المغرب في الحال فخنجر والدها مسلط عليك ولا يمكنه أن يغفر لك . ليس لديك أيها المعلم جمال ولا ولد لتدفع فدية دمك فعليك بالرحيل إذا كنت تريد رؤية القمر المقبل . لو لم يكن الخطر داهماً الى هذا الحد لما نجش هاشم مشقة السفر من دواره البعيد حتى يبلغني هذا التحذير ، وهذا ما أفنعتني به معرفتي للعقيلة القبلية . من الواضح أن كريمة قد تكلمت وأنهم اكتشفوا كل شيء ليلة الزواج . سألته بسرعة : « هل ذكرت كريمة إسمي ؟ » فعلت شفقي ابتسامة خفية ولم يجب على سؤالي . ثم حوّل نظره الى النافذة المطلة على سطوح القصبة البيضاء وعلى مضيق جبل طارق البعيد . وقال لي بكلمات شاعرية : « ليتك كنت هناك يا سيدي لترى غصبة الزوج المخدوع في ليلة عرسه . فبدلاً من إلقاء خرقة ملوثة بالدم العذري ألقيت على المدعويين المذهولين خرقة ناصعة البياض . فتحولت أفراح العيد الى وجوم مطبق وتحولت أنظار المدعويين يقدح منها الشرر الى ابنة عمي المطرودة تريد أن تلتهمها حية . وتبعثها أصوات الطبول وولولة النساء حتى منزلها الأبدي حيث سارع والدها المنهوك تحت وطأة السفر الى تسميمها . وفي اليوم التالي شوهدت كريمة تتلوى على صخور النبع المقدس في نزاع يائس . إنهم في

الريف يطلبون دمك يا سيدي وليس أمامك سوى الحرب . فان خناجرهم ستصل إليك حيث لا تراها وتطعنك يد لا تعرفها فحذار من أن تنير الشمس جثتك عندما تشرق من جديد ! »

أبحرت في اليوم ذاته في زورق بخاري إسباني أقلتني نحو برشلونة . كانت أمواج البحر تبعدني شيئاً فشيئاً عن المغرب الذي عرفته مدهشاً ومقلّداً . وبقيت واقفاً في مؤخرة الزورق طيلة ساعة موجهاً نظري نحو الجنوب حيث ماتت كريمة «نجمة الريف» الجميلة النيرة لأنها أودت الحياة .

*

الجزء الاول

وضع المرأة في البلاد الاسلامية المحافظة
المواة المسلمة في التقاليد والعادات

١ - الشريعة والعرف :

إن وضع المرأة في الاسلام حسب تعاليم الشريعة والعرف المتبع هو نتيجة المبادئ الدينية التي أتى بها القرآن والتي تحتم على المؤمن أن يخضع لمشيئة الله وقدرته العظيمة ولنية محمد وكتابه الكريم. وعلى من يريد أن يبحث عن اسباب جمود وضعية المرأة منذ قيام المجتمع الاسلامي حتى الآن بالرغم من تطورات الزمن وتقلباته أن يرجع إلى ما علق بجوهر الاسلام لا إلى الاسلام نفسه. لقد تألف هذا المجتمع في البدء من مجموعة قبائل عربية آمنت بالوحدانية المطلقة التي كان ينادي بها النبي العظيم ، ورفضت كل أشكال الوثنية التي كانت تؤمن بها سابقاً وبدأت توسعها المدهش عسكرياً أولاً ثم ثقافياً واقتصادياً. وتفتقت عن مدنية من أعظم مدنيات العالم. ويمكن القول بأن محمداً لم يخص المرأة بالشيء الكثير في كتابه المنزل عدا سورة واحدة مع بعض

الآيات المتفرقة تحدث فيها عن المرأة المؤمنة . وسنرى كيف أن تعاليم القرآن في هذا الموضوع هي أحفظ لكرامة المرأة وهي أرحب وأجمل من التقاليد المتبعة ذاتها . ومن المؤسف القول بأن الظروف التي مرت بها المرأة في العالم الاسلامي لم تساعد على تحررها ، بل أن بعض الافتراضات التي كانت تتعلق بها قد تحولت على مر الزمن الى اعتقادات ثابتة مقدسة . والملاحظ أن آيات القرآن في هذا الشأن لا تشبه هذه الاعتقادات في شيء من حيث المرونة التي تتمتع بها ، وقد تتناقض معها أحياناً ، وهي قابلة لتأويلات مختلفة تسمح بتطبيقها على المجتمعات المختلفة دون المساس مع ذلك بمعناها الاصيل . ويوضح لنا تمسك المؤمن بكتابه كمرجع وحيد لضميره وأعماله ، يوضح لنا سر قوة الاسلام ووحدته التي برهنت عن نفسها في مختلف الظروف . ففي نظر الجاهل الذي لا يعرف حقيقة الاسلام أن الله لا الانسان هو الذي قضى بأن تكون المرأة في هذه المنزلة الوضيعة ، وأن النبي هو الذي أرادها محجبة . وهناك قصة تقول إن عمر بن الخطاب كان شديد القسوة على النساء . والاعتقاد السائد في بعض الأوساط بأن تعدد الزوجات هو من مخلفات ظهور الاسلام اعتقاد خاطيء .

ومن هذه الزاوية ، يمكن اعتبار ما أقدم عليه بعض رجال الشرق الاسلامي أمثال رضا خان في إيران ومصطفى كمال في تركيا والحبيب بورقيبة مؤخرآ في تونس من إلغاء حجاب المرأة ودعوتها إلى السفور ، تدبيراً ثورياً هاماً . ويعتبر هذا العمل من الناحية الطقسية صرفة تحدياً للتقاليد الشرقية المعبول بها ،

وهذا ما أكدته لي أحد علماء الأزهر في القاهرة . ومع هذا فلا يجب أن نعتقد بأن تطبيق أحكام القرآن وتأثيره على وضع المرأة هو واحد في كافة البلاد الاسلامية .

فقد تم ادخال الشعوب الأعجمية في الإسلام في القرن الأول للهجرة أي منذ أكثر من ألف عام . ولكن جيوش المؤمنين كانت غالباً ما تصطدم بجماعات لها عاداتها وتقاليدها ومدنيتها الخاصة . وقد حافظت هذه الشعوب بالرغم من خضوعها لحقيقة القرآن وتسليمها به ، على عدد كبير من عاداتها وأعرافها الخاصة التي كان الواقع الجغرافي يفرضها عليها .

وهكذا تم شطر العالم الاسلامي إلى شطرين مختلفين . أقرّ الشطر الأول القرآن بصورة نهائية وطبق تعاليمه على جميع أوجه النشاط الاسلامي القانوني والديني والفكري واتخذ منه مثلاً أعلى ودمستوراً للحياة . أما الشطر الثاني فحاول التوفيق بين ما جاء في القرآن من شرائع وفرائض مع أعرافه المحلية وتقاليده . ولا تتجاوب الشريعة في أحيان كثيرة عند مسلمي الشطر الثاني مع متطلبات المجتمع المحلي وإمكانياته ، بل تحل محلها تشريعات عرفية خاصة . أما في الحالات الخطيرة عندما ينبغي انجاز قرارات أساسية لا تمشي والتقاليد فان أحكام السنة هي التي تطبق .

ويسود العرف عند قبائل البوهر الصحراوية التي بقيت بمعزل عن التيارات الخارجية ، وتتمتع المرأة في تلك القبائل بحق تسمية ابنائها باسمها وتلعب دوراً هاماً في حياة الأسرة ، وهذا ما لا تتمتع به مسلمات شمال افريقيا العربيات اللواتي يخضعن تمام

الخضوع لأحكام الشريعة . ويسري العرف كذلك على غالبية سكان افريقيا الشمالية أكانوا في الريف المغربي أو منطقة القبائل أو الصحراء حيث تقطن قبائل الرقيبات والهورنيانيين والطوارق أو في بلاد النوبة . أما في آسيا ففسود العرف ، عدا المسلمين المنشقين عن التعاليم الدينية بصورة صريحة ، ويؤلفون نصف السكان المسلمين الآسيويين البالغ عددهم ٣٥٠ مليوناً والمعتبرين من المؤمنين المخلصين . وما يزال هؤلاء يحافظون على تراثهم الشرقي القديم ومنهم الدروز والأكراد وقبائل ايران الغربية وبعض الفئات الاخرى في ايران والباكستان والافغان وكشمير بالإضافة إلى التركمان وسكان جزر ملقا واندونيسيا الذين يشكلون قوة إسلامية ذات شأن كبير .

والفرق واضح بين ظروف المرأة في البلاد التي تطبق فيها الشريعة كاملة وتلك التي يتبع فيها العرف . وإذا شئنا درس حقوق المرأة وواجباتها من خلال القرآن والسنة الكريمة فمما يشرف المسلمين القول بأن القرآن قد خطا بالمرأة خطوات واسعة إلى الامام . وبوسعنا التحقق من حقيقة هذه الخطوات إذا ما قارننا بين ظروفها قبل ظهور الاسلام وبعده . فقد حدد القرآن أسس الزواج وشروطه لأول مرة في المجتمع العربي ، بعد ان كان البغاء الفاضح هو السائد . فأصبحت الزوجة طرفاً في الزواج ، توثق عن زوجها إذا مات ، لا تنفصل عنه إلا بموجب شروط واضحة . كما حدد النبي عدد الزوجات بثلاث أو أربع .

وبرغم هذا كله ، بقي مصير المرأة خاضعاً لأشنع صور

التحكم ، فقرابة الرحم لا تعطي صاحبها أي حق وراثي ، حتى ان أبناء البنت لا يرثون شيئاً عن جدهم ! وهذا قليل من كثير إذا عرفنا ان الدين فرض على المرأة تأدية نفس فروض الرجل طوال حياتها وهي الصلاة والصوم والزكاة والحج ومساعدة المجاهدين إبان الحروب المقدسة ، ولكن المجتمع لم يعترف لها مطلقاً بهذه الحقوق . وفي الواقع ان المرأة المسلمة لا تدخل أبداً الى الجامع كما ان المساواة الروحية والدينية بينها وبين الرجل ليس لها مطلق وجود برغم تعاليم القرآن في هذا الشأن وهي تعاليم تقرض هذه المساواة . ويرجع اعتبار عاطفة المرأة الدينية أدنى درجة من عاطفة الرجل الى اعتقاد هذا الأخير بأن ارادة الله تقضي بأن تتدنس المرأة بسبب عاداتها الشهوية . فتعامل في تلك الفترة كما لو كانت دنسة حقاً فتعزل عن الناس ويحتقرها الجميع كما يحتقر المصاب بداء الكلب .

وتسمح الشريعة للنساء بالدخول الى الجامع بشرط أن يجلسن وراء الرجال حتى لا يثرون الشكوك في نفوسهم أثناء تأدية الصلاة . والحقيقة أنه ليس هناك امرأة مسلمة واحدة في كافة الديار الاسلامية تجرؤ على دخول الجامع ، باستثناء جزر لكديف ومينيكوي وملديف حيث لا يحق للنساء إداء نفس فروض الرجال وحسب بل التردد على جوامع خاصة بهن أيضاً . أما في باقي البلاد الاسلامية فلا تخصص أية أمكنة للنساء في الجوامع حتى ولا نظرياً . وينكر المزمعون ببعض البلدان ان تكون لنسائهم روح أو

حياة أخرى بعد الموت بالرغم مما جاء في التعاليم والتقاليد في هذا الشأن .

وإذا كان مركز المرأة الديني بانساً لهذا الحد فظروفها الاجتماعية والعائلية ليست أفضل من ذلك . فالرجل هو الكل بالكل يتفوق عليها باستمرار . وهو يحقرها احتقاراً شديداً في بعض البلدان المتخلفة ويضعها في منزلة أخطأ من منزلة الحيوان . وفي مجتمعات كثيرة تساوي الناقة أو الحمار الصغير أكثر مما تساويه المرأة مادياً ومعنوياً . فنرى الرجل يهتم بناقته ويعطف عليها بينما يهمل امرأته وبناته ولو كن في مأزق عسيرة ! وهو ينتهج لولادة طفله أكثر من ابتهاجه بولادة طفلته ويتأثر لموته أكثر من تأثره لموت إحدى نساته . وهذا يناقض ما قال به القرآن من ان للنساء حقوقاً مشابهة لحقوق الرجال وان المرأة هي سيدة منزل زوجها .

وفي بعض البلدان لا تتمتع العجائز بأي احترام أو حماية من قبل الرجال عامة ، ويُنظر اليهن كما يُنظر إلى أشياء عتيقة غير صالحة للاستعمال . وهناك أمثال كثيرة في افريقيا الشمالية تعتبر بدون التباس عن هذه النظرة إلى العجائز . فبينما يُطرى جمال الفتاة ومحاسنها وما توفره من لذة للرجل ، يُحرّض على قتل النساء اللواتي جاوزن الخمسين . وهناك مثل عامي يوصي باستحضار لعنات الله وملائكته على اللواتي بلغن الستين ! وهذه النظرة محصورة لحسن الحظ في نطاق بعض مجتمعات العالم الشرقي الضيقة في افريقيا الشمالية واليمن والمملكة السعودية والافغان .

٢ - حياة المرأة المحافظة :

أود هنا ان أتحدث عن حياة المرأة المسلمة التي تتبع تعاليم القرآن بصورة وثيقة ومن ثم أخلص الى إظهار الفروق بين أوضاعها وأوضاع النساء اللواتي يعشن في مجتمعات تخضع للعرف أكثر مما تخضع للشريعة ، فيصح بوسعنا آنذاك ان نتبين اتساع حركة تحرر المرأة من القيود المفروضة عليها ، والطابع الثوري الذي تتميز به هذه الحركة في الباكستان وتونس وتركيا ويوغوسلافيا والجمهورية الاسلامية السوفياتية وبعض مناطق الصين.

الولادة والطفولة

بيّنت سابقاً ان الرجل هو الذي يسيطر سيطرة تامة على الاسرة ، ولا تلعب المرأة سوى دور ثانوي ، خاصة فيما يتعلق بتربية الاطفال . وكثيراً ما يحدث عند ولادة أنثى في العائلة ان يحاول والدها إخفاءها عن المجتمع بكافة الوسائل الممكنة . فإذا سئل عن عدد أولاده أجاب عن عدد الذكور بينهم فقط . ويبني الرجل منطقته في هذا الشأن على أساس ان الانثى لا تقوم بأي عمل إيجابي حتى سن نضوجها عدا عن كونها تزيد من أعبائه لحاجتها الى الطعام والكساء . ولدى زواجها تنجب ذرية ليس له شأن فيها ولا تحمل اسمه . فليس هناك إذاً سبب يجعله يحتفي بولادتها ويذبح الخراف على شرفها أو يدعو أصدقاءه للمشاركة في فرحته كما يحدث عند ولادة الذكر . وجل ما يحصل هو ان تأتي بعض النسوة لزيارة الأم ويقيمن فيما بينهن احتفالاً بسيطاً لهذه المناسبة.

أما إذا كانت المولودة لأمة فهي منبوذة حتى من بنات جنسها وتقضي حياتها في تعاسة بالغة .

وبعد ولادتها توضع الفتاة إذا كانت من أسرة غنية أو متوسطة في كنف أمة أو خادمة تهتم بكافة أمورها وتحل محل والدتها التي تكاد لا تراها . وتكثر هذه الحالات بنوع خاص بين أوساط العائلات السعودية الغنية وفي إيران وأفغان . وجل ما يحق للفتاة القيام به هو مرافقة تابعتها أينما ذهبت وهي تحمل في يديها لعبة من الخرف هي العلامة الوحيدة للفتاة المسلمة أكانت موسرة أم فقيرة . ولا يهتم ذووها بتربيتها أو بإحاطتها بأي رعاية أو حنان ولا يرونها إلا نادراً إذ لا يحق لها البقاء بين حريم أبيها أو الدخول إلى الغرفة التي يقضي فيها ليلته معهن الواحدة تلو الأخرى .

وبرغم هذا كله فلا يسعنا إلا القول بأن هذه الطفلة المسكينة قد تكونت في أحشاء أمها وولدت تماماً كسائر أطفال العالم الذكور منهم والانات ، المؤمنين والكافرين ، الأحرار والعبيد . وتفتحت عيناها على الحياة تماماً كجميع فتيات العالم فلا يمكن بالتالي تحديد معالم شخصيتها المقبلة مسبقاً . وكل ما تتعرض له من كبت ومراقبة واضطهاد ناتج عن عقلية متوارثة فريدة في نوعها ما كانت تخضع لها لو أنها ولدت في بلاد ككندا أو بلجيكا بدلاً من أفريقيا أو إيران .

وإذا راقب المرء سلوك أولئك الفتيات الصغيرات أثناء تجوله في أزقة المدن الشرقية لا يلحظ أي فرق بينهن وبين البنات الغربيات .

فهن يلعبن ويرقصن ويضحكن أو يبكين تماماً مثلهن دون أن يكون هناك فارق في نواحي الذكاء أو الخيلة أو الشخصية . حتى يأتي اليوم الذي يذهبن فيه إلى « الكتاب » فيجلسن في الهواء الطلق ويبدأن الدرس . وترسل بعض العائلات فتياتهن إلى « الكتاب » في سن الخامسة أو السابعة على أبعد تقدير ، غير أن نسبتهن ما زالت ضئيلة . ويقتصر تعليمهن في غالب الأحيان على درس بعض القواعد اللغوية والدينية الأساسية .

ولا يهدف هذا التعليم ، بعكس ما يجري في بلادنا ، إلى تنمية مواهب الفتاة وقدرتها لتصبح عضواً واعياً ونافعاً لمجتمعها بل يساعد في القضاء على مواهبها الفكرية والعقلية وربط شخصيتها بمفهوم تقليدي عقيم يحتم عليها الخضوع للرجل وخافة الله . فلا يلبث ذكاء الفتاة ، برغم كونه لا يقل قيمة ومقدرة عن ذكاء الفتى ، من أن يغور رويداً رويداً بفضل هذه الطريقة التعليمية المتحجرة والمملة التي تتبعها مدارس الاناث في كثير من البلدان الإسلامية . وتتعلم الفتاة أثناء حفظها الدروس أن لا تحاول التفكير بنفسها وأن تبقى خاضعة لآخرين يفوقونها مقدرة هم طبعاً الرجال . وتزيد نواحي أهلها التربوية من التضييق عليها كي تصبح فتاة صالحة ... كما يزعمون !

هذا كله يجعل منها لدى بلوغها التاسعة أو العاشرة من عمرها فتاة خجولاً تخضع لمركب نقص يبرز خاصة في حضور الرجال . فينبو خفها بصورة غير طبيعية ويزداد تحفظها إزاء الجنس الآخر وتحولها منه . إن كل فتاة شرقية تحفض عينيها بصورة آلية لدى

وقوع نظر الرجل عليها . ويعلق والدها في عنقها ، ليحفظها من العين الحسودة ، تعويذة هي عبارة عن غلاف جلدي أو معدني ثخين يحتوي على بعض قطع من الورق كتبت عليها عبارات دينية أو تضرعات للقدرة الالهية .

أما في إيران والافغان فتعمل الفتيات اللواتي بلغن العاشرة أو الثانية عشرة من عمرهن في معامل الحياكة . ويتمكن بعد تمرين يدوم بضعة أسابيع من العمل بمهارة ملحوظة . وقد تسنى لي أن أرى بنفسى كيفية حياكة السجاد الثمين التي تتم بيد عاملة يجني التجار على حسابها أرباحاً فاحشة ! تجلس الفتيات أمام النول في صفوف متتابعة يتألف كل منها من عشرة أفراد ويبدأن بعقد الخيوط بحركات سريعة لا تكل منها أصابعهن الصغيرة .

وتبدأ الفتاة المسلمة بوضع الحجاب على وجهها لدى بلوغها سن المراهقة . وقد تضعه قبل ذلك في سن العاشرة مثلاً كما يحدث في بعض البلدان . وتضطر بعد ذلك للمحافظة عليه طوال عمرها فلا تخرج أبداً مسافرة الوجه بالرغم من أنها تكون حتى هذه السن بدون أي غطاء تلعب مع الصبية الصغار وتجلس مع الرجال أثناء الأكل بحضور ضيوف غرباء .

وتختلف طريقة وضع الحجاب من بلد لآخر ، فالمغربيات والتونسيات يلبسن لثاماً يمتد بين الصدغين ويُبقي فسحة ضيقة مكشوفة أمام العينين اللتين تعمد المرأة إلى تجميلهما جيداً وتستخدمها بمهارة في الاغراء . أما الجزائريات فيحزنن لحافهن الأبيض بصورة لا تبقي سوى فسحة مكشوفة أمام عين واحدة .

وعلى العكس ، تغطي المصرية وجهها ببرقع شفاف يتدلى بأنافة من الرأس ويشبه إلى حد كبير البرقع المغربي . أما في الافغان والهند والباكستان فتغطي النساء رؤوسهن بحجاب كثيف متعدد الطبقات يتدلى كالجرس الاسود من قمة الرأس إلى أخمص القدمين ولا يمكن للعين اختراقه بحال من الاحوال .

وتخسر الفتاة المراهقة بإخفاها وجهها القليل من الحرية الذي كانت تتمتع به . وتلحق بأخواتها الأكبر منها وبعماتها وخالاتها ووالدتها اللواتي سبقنهن إلى الحرم الابدي حيث تبقى مخبأة حتى يختار لها ذووها زوجاً « صالحاً » فتنتقل من حرم والدها إلى حرم زوجها حيث يطرأ تطور جديد إذ يحق لها أن تقضي ليلة مع زوجها كلما جاء دورها وتجنب له أطفالاً يستحسن أن يكونوا من الذكور ...

الزواج ، الحرم ، الطلاق

إن ما يلفت النظر في الطريقة التي يتم بها الزواج بالشرق هو تجاهل ما يمكن تسميته بالحب أو العطف . وإذا حدث أن دب الغرام في قلبي الزوجين بعد زواجهما يكون ذلك صدفة يندر أن تقع . وعندما يعرب الشاب لوالديه عن رغبته في الزواج فإنها يهتمان بكافة الشؤون ومن ضمنها اختيار الزوجة المناسبة ويحتفظان له بحق الكشف عن وجه زوجته ورؤيتها الى لحظة يصعب بعدها التراجع إذا ما أصيب بخيبة أمل ! ويبعث الاهل عن العروس « الصالحة » ولدى عثورهم عليها يطلبون يدها من ذويها ، فإذا

قبل هؤلاء، عقد الطرفان اتفاقية تناقش بنودها بم عزل عن الخطيين المعنيين. ولا يلتقي العروسان إلا في ليلة الزفاف عند إتمام الزواج الرسمي. ويُدعى إلى العرس عدد من المدعوين يتناسب عدده والطبقة التي تنتمي إليها العائلتان. وقد تدوم الاحتفالات عدة أيام وفقاً للتقاليد المرعية فيرقص الناس ويغنون ويطربون.

وتتم للرجل، بدفعه المهر، السيطرة التامة على المرأة فيحق له حينئذ أن يرضي رغباته الجنسية وأن يتصرف بامراته بحرية تامة كما لو كانت سلعة تباع وتشترى. ويور تقليدان معروفان هذا المفهوم للزواج بوضوح. وخلاصة الاول أنه عندما تقصد امرأة من رجلين فهي من نصيب الاول تماماً كما يقصد شيء من قبل شارين فيباع للشاري الاول!. وخلاصة الثاني أنه يحرم شراء شيء هو موضع خلاف، وبالتالي فإنه ليس من حق المرء ان يطلب يد امرأة سبق لآخر أن طلبها ولم يتخل بعد عن طلبه لمصلحة الثاني.

ومهما يكن من أمر فإن جميع كبار المشتوعين متفقون على إبقاء عقد الزواج في النطاق التقليدي بحيث لا يعدو كونه من هذه الناحية نقلاً للملكية. ويخط قاضي المذهب المالكي في سجل الزواج عبارة في منتهى اللباقة والظرف فيقول مثلاً: « حضر إلى مقر القاضي رجلان وقد تحلى الاول عن ملكية ابنته الثاني ». أما ثن التخلي فيشكل البائنة التي تحدد قيمتها بعد أخذ

وردة بين الجانبين. وإذا لم يتم الدفع حسب الشروط المتفق عليها فبإمكان الزوجة أن تتمتع على زوجها. ويقول المشتوع المغربي في هذا الشأن ما مغزاه أن من حق الزوجة أن ترفض الخضوع لرغبات زوجها إذا لم تحصل هي أو أهلها على البائنة، إذ أن لكل بائع الحق في أن يرفض تسليم بضاعته ما لم يتسلم ثمنها!

ويجب أن نوضح على كل حال أن البائنة تدفع حسب العرف المتبع في كل منطقة سواء إلى الال، وهذا هو الحل الغالب والمعقول، أو مناصفة بين الزوجة والال، أو تدفع بكاملها للزوجة، وهذا نادر الوقوع على اعتبار أنه يشكل ضماناً للزوجة في حال طلاقها من زوجها.

وترمز عادة عرض الحرق الملوثة في حفلة الزفاف على أن الزواج قد تم فعلاً ابتداء من تلك اللحظة وان الاتفاقية المعقودة قد دخلت في حيز التنفيذ وأن المرأة انتقلت من عصمة أبيها إلى عصمة زوجها. والنصوص التقليدية واضحة في هذا الشأن وقد جاء فيها ما مؤداه أن على الرجل إتمام واجباته الجنسية نحو امرأته بدون تردد أو مراوغة وأن بوسع المرأة أن تطلب ذلك باصرار، كما جاء فيها ما معناه أن الرجل يستطيع نكاح زوجته وإمائه على هواه وحين يشاء. وتشدد القواعد الدينية بصورة خاصة على وجوب اغتسال الزوجين بعد كل نكاح. ولا يحق للمرأة بتاتاً أن تتنعم عن الحمل وتتجنبه. وبشكل الاجهاض جنحة يلاحق عليها أصحابها، وهذا يدل على ما للانجاب من أهمية في المجتمع الاسلامي. ويمنع الرجل من القيام بالعمل الجنسي إبان فترة العادة الشهرية

وتعتبر المرأة دنسة من جميع الوجوه أثناء هذه الفترة ولا يحق لها ممارسة واجباتها الدينية إلا بعد أن تغتسل بكاملها بعد انتهاء وقت عادتها . وإذا وجدت في مكان ليس فيه ماء ، كما هي الحال في المناطق الصحراوية ، فإن التقليد يسمح لها بالنظير بصورة رمزية بفرك جسمها وأطرافها بالحصى أو الرمال . وهذا يسري أيضاً على الرجل الذي يستطيع القيام بهذا العمل بدلاً من الرضوء في الحالات القاهرة .

ولم تتجاهل التقاليد فاحية سلوك الرجل الذي له أكثر من زوجة نحو زوجاته العديداً . فهي تؤمن حق النساء في الحصول على حقوقهن الزوجية وتقضي بأن يقتسم الزوج ليلته بصورة عادلة مع نساءه وإمائه فيستقبلهن في سريره الواحدة بعد الأخرى . وليس بوسعها أن يفرض على اثنتين منهن « العمل » في نفس الليلة ولو كانت إحداهن زوجة شرعية والأخرى ملك اليمين . ولا يستطيع كذلك هضم حق نساءه عندما يأتي دورهن حتى ولو لم تكن له رغبة في العمل الجنسي .

غير أن هنالك استثناء عندما يتخذ الرجل زوجة جديدة . فإذا كانت عذراء يحق له أن يقضي معها سبعة أيام بلياليها ، أما إذا كانت مطلقة أو أرملة فلا تتعدى المدة المسموح بها الثلاثة أيام .

وفي غالب الأحيان تكون حياة النساء في الحرم ، وهو جناح مشترك تعيش فيه الزوجات والاماء وتعطف كل واحدة منهن

على ضرائها بالرغم من كونهن يفتسمن نفس غرف النوم ووجبات الطعام وأنواع التسلية والزواج الواحد ، وليس لأي منهن حياة شخصية خاصة .

ومن هذه الناحية فإن حياة نساء الطبقة البورجوازية المبسوورة أفضل من حياة عامة الشعب ، إذ تتمتع كل واحدة بغرفة خاصة ولو كانت مفصولة أحياناً عن غرفة جارتها بستان بسيط أو قاطع حديدي . أما إذا كان الزوج يملك قصرأ أو بيتاً فسيحاً فإن لكل واحدة منهن جناحاً خاصاً تعيش فيه . ويمنع الاسلام النسوة أن ينزعن ملابسهن بحضور بعضهن وأن يرقدون سوية ، وهذا لا يتحقق إلا في الوضعين الأخيرين . وتسمح التقاليد للزوج بمعاينة نساءه وإمائه عندما يعصين أمراً من أوامره .

وتنصح التقاليد بضرب النساء ومعاقبتهم حتى يتبن عن الهفوة التي ارتكبتها . وتسمح للرجل بالاحتفاظ بعدد من الحليلات إلى جانب زوجاته الشرعيات وهذا ما يمكنه من التخلص من مسؤوليات الارتباط الشرعي والتمتع بالنساء دون مقابل . ويمكن للرجل أن يفسخ زواجه الشرعي بطريقة سهلة للغاية إذ يكفيه أن يتقوه أمام اثنين من الشهود بعبارة : « أنت طالق » ثلاث مرات ، فتدرك امرأته أن عليها أن تأخذ متاعها وترحل إلى منزل ذويها . وتنصح تعاليم القرآن الرجل بالتفكير مدة أربعة شهور قبل أن يقرر الانفصال نهائياً عن زوجته . ومن المؤسف القول أن الرجل يستغل مرونة هذه الوصية الحكيمة لصالحه الشخصي فيدعي متى شاء أنه قد فكر مدة

أربعة أشهر في أمر الطلاق واستقرّ عليه. والمرأة المتزوجة معترضة في كل لحظة لأن ترى نفسها خارج العش الزوجي . ولكن مما يلفت مصيبة طلاقها كونها تشعر لأول مرة ببعض الحرية يتيحها لها هذا الطلاق . فاذا حدث وتزوجت مرة أخرى تكون قد اختارت زوجها في الواقع بنفسها لأنها لم تعد تحت سيطرة أبيها الكاملة . وبوسعها أن تقيم إذا أرادت في حرم أخيها أو عمها بدل منزل أبيها . وهذا هو سبب تحييد الطلاق في بعض البلدان العربية . وتعتمد المرأة أحياناً إلى إطالة مدة طلاقها هذه برغم استطاعتها الزواج مرة أخرى بعد تكرار عاداتها الشهرية ثلاث مرات متتالية .

وإذا طلقت الزوج امرأته وكان لها طفل لم يتجاوز الثانية فمن حقها أن تحتفظ به حتى سنّ الفطام على أن يتحمل زوجها نفقة إعالتها وإيادها .

أما مصير أولاد المطلقين الذي يشكل معضلة دقيقة ومعقدة في مجتمعنا لا ترضي حلولها أياً من الأطراف المعنية، فهو مبسّط للغاية في المجتمع الاسلامي . فإنّ الوالد يعترف بجميع أولاده أكانوا من أمة أو من زوجة شرعية وبغض النظر عما تكون عليه علاقته بوالدهم ، فيبقيهم في منزله ويربهم دون تمييز بين الأولاد الشرعيين وغير الشرعيين . ولا يحق للزوجة تربية أولادها بنفسها سواء أكانت مطلقة أم لا . وفي حالة حمل امرأة زانية أو زواج أرملة من رجل آخر وهي حبل يُدعى الطفل باسم والده الحقيقي .

ولا تملك المرأة الشرقية زمام أي مبادرة في حياتها اليومية ولو كانت شراء حاجة ما . فالزوج هو الذي يقوم بكافة الاعمال وهذا ينطبق خاصة على المدن حيث تقضي المرأة أيامها بصورة رتيبة مقصورة عملها على الاهتمام بشؤون منزلية ليست بذات بال كما تعتنى بالاولاد وتقتل وقتها في الثثرة مع جاراتها من النافذة . وهي تهمل الحياطة والتطريز والحياكة وتكتفي بنسج بعض الأغذية الدافعة للاستعمال العائلي فقط ، بنقيض ما تقوم به المرأة البدوية أو الريفية من أعمال حمة تشكل حجر الزاوية في إنتاج الصناعات الصغيرة وعماد النشاط الاقتصادي المحلي .

والحرية الوحيدة التي تتمتع بها المرأة في المجتمع الاسلامي المحافظ هي تبادل الزيارات مع صديقاتها وأخواتها في منازلهن الخاصة . أما بشأن الحماية فيحق للزوج أن يحدد زياراتها أو أن يمنعها نهائياً إذا رأى أن حماته تقصد انسجام العلاقات العائلية وتعكّر صفوها بنصائحها واقتراحاتها !

الرقّ

إنّ كثيراً من النساء اللواتي يعشن في الحرم يُعتبرن إماء أسيادهن . وفي الواقع أنهنّ لم يعدن كذلك إلاّ اسمياً وأصبحت معاملتهنّ لا تختلف كثيراً عن معاملة الزوجات الشرعيات . ويرجع تاريخ الرقّ إلى جذور بعيدة تمتد إلى ما قبل ظهور الاسلام . وبعد ظهور الدين الجديد كان الأسرى الوثنيون أو الكفرة الذين يرفضون اعتناق الاسلام يعاملون كأرقاء وكذلك

كان شأن السكان العرب المنشقين على الخليفة وعلى تعاليم الدين الحنيف. ولكن تجارة العبيد بمفهومها الكامل كانت تتم في سوق النخاسة ولا يزال بعض كبار اغنياء الجزيرة العربية يتعاطون هذه التجارة بمساعدة بعض العملاء الغرياء الذين يؤمنون لهم الرقيق الابيض. وبما يثبت هذا القول ما نلاحظه في بلادنا الأوربية من اختفاء فجائي لكثير من الفتيات الماجنات في ظروف مثيرة غامضة.

ويمكن تلخيص وضع الرقيق في المجتمع الاسلامي حسب ما جاء في احكام الشرع والسنة بما يلي: لا يحق للعبد الذي هو موضع ملكية، ان يملك او ان يبيع شيئاً. ولا يمكنه المتول امام القضاء كشاهد ولا قيمة لادعاءاته وشكاويه ولا يتحمل مطلق مسؤولية اجتماعية او انسانية حتى ولو كانت تتعلق بأولاده. ويمكن للأمة ان تتزوج ولكن لا يحق لها الحصول على البائنة المتعارف بها. وبوسعها الزواج من رجل حر بشرط أن لا تكون كافرة، كما يحق لها الزواج من عبد شرط ألا يكون متزوجاً من امرأة حرة. ويعتبر الاولاد الناتجون عن اتصال السيد بالأمة احراراً بصورة آلية. اما طلاق الأمة فأسهل بكثير من طلاق الحرة إذ يكفي ان يردّد الزوج مرتين امام بعض الشهود عبارة: « أنت طالق، انت طالق » بدلاً من ثلاث مرات فتتفصم العلاقات الزوجية بين الاثنين.

ويجزم على الرجل الاتصال بأمرأة متزوجة إلا إذا كانت أمة فهي تعتبر في هذه الحالة غير مسؤولة او مدركة لتصرفاتها، ولا تطبق.

عليها الاحكام التي تطبق على الزوجة المؤمنة.

وقد يعجب المرء، الأوربي خاصة، لركون المرأة إزاء واقعها الوضع هذا وحياتها البائسة. ويستمر هذا الجمود بالرغم مما تشهده نساء المدن من مغريات جديدة في الحياة العصرية وتطورات في اوضاع النساء الغربيات. ولكي نفهم هذا الركون والاستسلام إلى واقع الحال علينا بالرجوع إلى التفسيرات والوصايا الطقسية المتعلقة بحياة المرأة الشخصية والاجتماعية والشرعية فنرى أنه لا يمكن للمرأة ابداً ان تتحرر من قيودها الراهنة والرواسب القديمة العالقة في ذهنها دون ان تصطدم مباشرة بهذه التفسيرات. ولا تتحمل القضية سوى حلين لا ثالث لهما. فاما ان تتقيد المسلمة بتأويلات عقيدتها المتجمعة خلال عصور كثيرة وتطبقها مجذافياً، وإما ان تخرج عليها خروجاً تاماً وتغلى عن بعض ما تفرضه عليها. ولا يمكن ان يكون هناك تطور اوضاع بل ثورة على الاوضاع. ولهذا السبب فان المرأة تتردد كثيراً قبل ان تقدم على اي عمل من هذا النوع خاصة وأنها لا ترى فيمن سبقها من يشجعها على الاقدام عليه، وهي مقتنعة في دخيلة نفسها بأن واقعها يحتم عليها ان تكون في مرتبة ادنى من مرتبة الرجل فلا يحق لها بالتالي التمرد عليه او مخالفة الامتيازات التي خصّ الرجل بها بنفسه.

الموأة في اليمن

تعتبر اليمن من أشد البلاد الإسلامية المحافظة بعداً عن مجاري الحياة العصرية ومظاهرها الإلحادية . وهي تشكل مع بعض البلدان الأخرى كالافغان وإيران والسعودية وعمان وحضرموت وبعض مناطق افريقيا الشمالية مجموعة بشرية ما زالت تطبق أحكام الشريعة بكثير من التزام والتضييق .

وقد تمكنت طيبة فرنسية شابة عملت مدة من الزمن في اليمن وطافت مختلف أرجائها من الاطلاع على شؤون النساء اليانيات وأحوالهن . وهذه الطيبة هي « كلودي فايان » التي ذهبت من باريس إلى صنعاء بمفردها واستطاعت بذكائها ومقدرتها اكتساب عطف الشعب الياني بأجمعه والحصول على ثقته بما سمع لها بمعاشرة جميع الأوساط والاطلاع على أشياء جديدة لم يطلع عليها شخص اوروبي قبلها . وقد نشرت لدى عودتها كتاباً مشوقاً اسمه « طيبة فرنسية في اليمن » أسمح لنفسني بنشر بعض مقاطعه الهامة التي تلقي ضوءاً على عقلية المرأة اليانية وحياتها في قلب الحرم . وتبوز لنا المؤلفة نواحي متعددة من حياة المرأة اليانية التقليدية والمشاكل التي تعترضها .

فهي تحدثنا مثلاً عن فتاة صغيرة تدعى « شريفة » تسنى لها الاشراف على معالجتها والاهتمام بأمرها لفترة عابرة ، وتبلغ الفتاة الثانية عشرة من عمرها ، وهي لا تختلف في شيء عن فتيات العالم قاطبة من حيث الذكاء والامكانيات العقلية والجسدية . وتقول

الكاتبة عنها : « كانت شريفة فتاة صغيرة تعيش مع ذويها وأختها الصغيرة لطيفة في الجبال الشمالية ، وأدركت بعد وفاة أهلها ان حياتها في الريف لن تكون هائلة ابداً فقررت ان تأتي إلى صنعاء على الحظ بيتسم لها فتتخسن أحوالها . وهكذا كان ، فقدمت الفتاتان إلى صنعاء بعد سفر شاق دام ثلاثة أشهر وهما في حالة يرثى لها وأدخلتا إلى المستشفى حيث أشرفت على علاجها حتي أبليتاً من المرض . وعندما أخبرتاً بوجوب مغادرة المستشفى توسلتا إليّ كي أبقيهما ولكن هذا لم يكن ممكناً ، فتوصلت بعد جهد طويل إلى إدخالهما في مدرسة تديره لاجئة فلسطينية تعهدت برعايتهما والاشراف على تعليمهما الكتابة وتلاوة القرآن ، كما تمكنت من إسكانهما لدى إحدى العائلات الكريمة مقابل مبلغ شهري معين . وقبلت شريفة بارتياح هذا الوضع الجديد وأحرزت تقدماً سريعاً في دراستها . وعندما بدأت أنوثتها تبرز وضعت البرقع على وجهها وبدأت تجمل يديها وتتعلم الرقص ... »

وسارت الأمور سيراً طبيعياً حتى نهاية الموسم عندما قررت العائلة التي تضيف الفتاتين الانتقال إلى العوادي، شأنها في ذلك شأن عائلات الطبقة البورجوازية في صنعاء. وعرضت علي اصطحاب الفتاتين ولكنني لم أوافق إلا على سفر لطيفة وعهدت بشريفة إلى نجبية وهي امرأة فرنسية تساعدني في المستشفى ، فقبلت بسرور . ولكن العيون الشريرة أبت ان تستمر الفتاة في دراستها فاتهمتها تهمة باطلة أمر الامير حسن نائب الامام على أثرها بنقل الفتاة من عهدة الاجنبية ووضعها عند امرأة احد العساكر على ان تستمر

في دراستها على نفقته الخاصة .

ولكن حالة شريفة ازدادت سوءاً لقسوة زوجة العسكري عليها وإرهاقها لها بالأعمال المضنية وتحريضها لها على الانقطاع عن الدراسة ، ولكنها كانت تجيبها بعزم وإباء : « إني أريد أن أتعلم القراءة حتى لا أكون غيبية في المستقبل » .

وفجأة تختفي شريفة فأمكن بعد البحث والتنقيب من معرفة مقرها . لقد ارتأى الأمير أنها غدت في سن يسمح لها بالعمل فأرسلها مع اختها إلى أحد قصوره البعيدة للعمل كخادمة . وتتوالى الأحداث بعد ذلك فتأتي إليّ فتاة فقيرة ليست إلا لطيفة لتخبرني بأن شقيقتها شريفة هي نزيلة السجن في صنعاء . وأعلم بعد ذلك أنها خرجت في سلوكها مع العساكر عن الطريق القويم فحاول حارس عجوز ورع أن يتزوجها ليردها إلى السبيل القويم ولكنها رفضت فأمر بحبسها . ولكن كيف العمل لخراجها ؟ إن الطريقة الوحيدة لإطلاق سراحها هي في زواجها بشرط أن يوافق الأمير مسبقاً على ذلك . وتمكنت من العثور على شخص متزن فهم وضع شريفة وقبل بالاقتران بها والسماح لها بمتابعة دروسها . واتصلت بالأمير بواسطة أحد أصدقائه الجيمين ليخبره بالوضع الجديد ويقنعه بإطلاق سراح الفتاة . وكما كانت دهشتي عظيمة عندما جاءني الوسيط وهو يهز رأسه بأسى قائلاً إن الأمير رفض هذا الطلب . فتخلّيت آنذاك عن شريفة التي قامت بالمستحيل لتتلم القراءة ولكنها لن تتعلم أبداً ... »

وتعالج قصة خيرية التي تروىها الطيبة « فاين » في كتابها ناحية

أخرى من حياة المرأة اليمنية وتبين أن الحب الحقيقي يمكن حتى في هذه البلاد المنكمشة على نفسها :

« تعيش خيرية مع زوجها في غرفة وضعية مظلمة في أحد الأحياء القديمة لا تحتوي إلا على النزر اليسير من الاثاث ، وهي مريضة وحامل كذلك ولها ولدان . دُعيت لعيادتها فوصفت لها الدواء اللازم . وكان زوجها عسكرياً بسيطاً لا يكاد معاشه يكفيه لسد حاجته ولا يملك ثمن الدواء ولكنه يحب زوجته ويريد شفائها بأي ثمن ، فأخذ يكتب إلى الأمراء والوجهاء مستجدياً عطفتهم وأرجحتهم ولكن أحداً منهم لم يعظه ثمن الدواء . وفي ذات يوم رأيت خيرية قادمة إليّ مع زوجها ويدها الدواء المطلوب . لقد قاد اليأس زوجها إلى أن يقصد تاجراً غنياً من تجار المدينة ويقول له : إن الحكمة قد أعطت زوجتي مسكناً أولياً وهي مسيحية ولا تملك مالاً كثيراً أفلا تعطيني أكثر منها وأنت المسلم المؤمن والرجل الغني ؟ » فرق قلب التاجر لهذا الكلام وأعطاها حاجته . فشفيت خيرية وولدت طفلاً جميلاً ! »

وتتعرض الطيبة « فاين » في مكان آخر لقضية استمرار تجارة الرقيق الأبيض في هذه البلاد المغلقة على نفسها وانعدام الرقابة على الذين يتعاطونها وحتى الاعتراف بهم وتشجيعهم رسمياً في بعض الأحيان . ثم تتحدث عن جهل المرأة الكامل الذي يخفي وراءه أحياناً كثيرة ذكاء فظرياً خارقاً ، وتستشهد على ذلك بقصة امرأة عجوز أصيبت بداء عضال وفقدت كل أمل بشفائها فجاءت من قريتها البعيدة إلى العاصمة وقصدت الطيبة : « ... كانت

ستموت بعد بضعة شهور ، وحسب العادة المتبعة سألتها عن عمرها برغم أنني كنت أعلم الجواب مسبقاً وهو "هز" الرأس دلالة على عدم المعرفة . ولكن حدث في هذه المرة شيء مدهش ونظرت إليّ بحياء مزوج بالحزن والغضب قائلة : « لا أدري كم هو صمري . إننا معشر النساء نعيش في القرية كالحيوانات لا ندري حتى كم هو عمرنا » . إن نظرة هذه المرأة إلى الأمور و غريزتها الفطرية وتعميمها الكلام على جميع نساء بلادها تدلّ على ذكاء لم يجب بعد وتبعث على الأمل بمستقبل أفضل .

المرأة في مصر والشوق الأوسط

إن العدد الأكبر من البلدان الستة عشر في العالم التي لم تعترف بعد بحقوق المرأة السياسية والمدنية هي بلدان إسلامية تقع في منطقة الشرق الأوسط . ولم تزل دولتان منها تتبعان النظام القبلي وترفض الاعتراف حتى بحق الرجل في ممارسة حقوقه الانتخابية والتمتع بالحرية الديمقراطية ، وهما اليمن والسعودية . أما بقية البلدان ومن ضمنها ليبيا والسودان والأردن وإيران والأفغان فتشكل مجموعة إنسانية يميّز فيها من الناحية الاجتماعية بين الرجل والمرأة . أما في لبنان فتتمتع المرأة بحق الانتخاب وبحق ترشيح نفسها للانتخابات بشرط أن تكون حائزة على الشهادة الابتدائية وكذلك في الجمهورية العربية المتحدة حيث يحق للمرأة الانتخاب في سن الثامنة عشرة وترشيح نفسها في سن الخامسة

والعشرين .

والحقيقة أن تطور المرأة الصحيح في تلك البلدان لا يمكن أن يتم إلا بتعليمها وتهذيبها . وكان العالم الاجتماعي الكبير قاسم أمين يقول في بدء هذا القرن في كتابه « المرأة الجديدة » ، وتحرير المرأة ، اللذين اعتبرا ذا طابع ثوري خطير ، بأن تطور أوضاع المرأة يتأثر قبل كل شيء بتربيتها . وهذا لا يخالف في شيء تعاليم القرآن وأحكامه ، بعكس ما قاله لي أحد علماء الجامع الأزهر في الردّ على نظرياتي « الغربية » عن تساوي الجنسين . وقد اضطر على كل حال للسكوت عندما أوضحت له بأدب جمّ بأن النساء المسلمات المحافظات هنّ أكثر نساء العالم جهلاً ، أياً كان الدين الذي ينتمين إليه وأياً كان الشعب الذي ينحدرون منه .

وقد دار هذا الحديث بيني وبينه قبل حوادث السويس بفترة قصيرة عندما كان الرئيس المصري يلعب حماس الجماهير بخطبه الوطنية ويطري بنوع خاص فتيات الحرس الوطني اللواتي تطوعن في « فرق الموت » وسرن في ميدان الاسماعيلية الكبير وبنادقهن على أكتافهن تحت أنظار الشيوخ وعلماء الدين المذهولة ! ولكن شيئاً ما كان ينقص هذا التحول النسائي المفاجيء لأن قواعده لم تكن بعد من القوة والمتانة بحيث تركز وتثبت . إن عدد أولئك الشابات لم يكن في الضخامة التي حددتها الدعاية ولم يكن بعد قد تمرّسن بدورهنّ كعسكريات وفارسات بل انخرطن في هذه الفرق تحت تأثير شعور وطني جيّاش بوصفهنّ بنات حراس الطليعة الثورية . ما كانت هذه الطليعة لتتجرّأ على إظهار مثل هذا الشعور

في أيام الملكية بشكل من الأشكال . وقد يكون من الأفضل لأولئك الفتيات لو استبدلن بنادقهن في هذه المرحلة بكتب الدرس والمطالعة لأن التطور الحقيقي يأتي عن طريق التفكير أكثر مما يأتي عن طريق الاستعراضات الخارجية . هذا بالإضافة إلى أن الأكثرية الساحقة من الشعب الريفي البسيط ، وتشكل تسعين بالمئة من مجموع السكان ، لم تكن مقتنعة أو مشجعة لبادرة تجنيد الفتيات .

وتعتبر مسألة تحرر الجماهير في وادي النيل مشكلة المعهد الأولى التي يتوجب حلها قبل التفكير في مشكلة تحرر المرأة . وتقود الحركة النسائية المصرية نساء تحدّين إرادة فاروق في عام ١٩٤٥م وعقدن أوّل مؤتمر للنساء العربيات في القاهرة في وقت كان الملك يبذّر فيه أموال الشعب على طاولات القمار ولا يتورّع عن كيل اللكمات لزوجته فريدة التي شاء سوء طالعها أن لا تنجب له وريثاً للعرش . لقد تبّين لأولئك النسوة أن حالتهنّ في منتصف القرن العشرين هي حالة سيئة للغاية ولا تشبه في شيء حالتهنّ في سني الهجرة الأولى التي كانت أحسن بكثير . فبدلاً من التطور الذي كان منتظراً إحرازه في خلال ثلاثة عشر قرناً لم يحصل سوى تدهور مستمر . وفي الواقع أن ثروة البلاد العربية كانت مبنية في الأساس على التجارة فكان الزوج يضطر في أحيان كثيرة إلى ترك المنزل لمدة طويلة يعهد خلالها إلى زوجته برعاية شؤون البيت وحاجاته . وهذا ما جعل المرأة تتمتع في ذلك الوقت بامتيازات عديدة جعلت منها صاحبة الكلمة الأولى

والأخيرة في الكثير من الأمور حتى أنها ضاهت في مركزها مركز الزوجة الرومانية قديماً . فكانت حرة التصرف بإدارة أملاكها تتخذ الاجراءات التي تراها مناسبة دون الرجوع إلى زوجها أو الحصول على إذنه المسبق . ولم يكن من حقّه أن يتدخل في شؤون زوجته الخاصة كما لم تكن هي الأخرى مجبرة على الحصول على موافقته الضمنية فيما يختص باحتياجات المنزل ونفقته . وكان يحقّ لها أن تطالب بمسكن منفرد وأن ترفض السكنى مع ضرتها أو قريبات زوجها وأن تطلب الطلاق إذا رفض الزوج تحقيق مطالبها ، إلا إذا كانت قد أدخلت في إتفاقية الزواج بنداً خاصاً بهذا الأمر .

وعندما كانت الزوجة تقدم شكوى ضد زوجها بسبب تعديه على حقوقها كان القاضي يعيّن حكّمين الواحد من عائلتها والآخر من عائلة الزوج ليحاولا إصلاح ذات البين . فإذا فشل كان من حق المرأة الاحتفاظ بأولادها حتى سن السابعة للذكور منهم والتاسعة للإناث . وكان يحقّ للذكر ، حسب المذهب المالكي ، الاختيار بين والده ووالدته وللأنثى البقاء مع والدتها حتى سنّ زواجها . ولكن جميع هذه الحقوق ضاعت من المرأة وأنكرت عليها خلال تطور الزمن . وتسعى اليوم جمعية « بنات النيل » كما تسمي رابطة النساء المصريات نفسها لاسترجاع الحقوق المهضومة والامتيازات التي طواها الزمن طوال عشرة قرون وللانبعاث من جديد والتفتح على حياة القرن العشرين . وتوصلت هذه النخبة النسائية بفضل جهودها الفردية من انتزاع

بعض حقوقها المهضومة برغم معارضة جماعة الاخوان المسلمين التي كان لها تأثير كبير على الحكومة والقصر في العهد السابق . فقد عدلت في سنتي ١٩٢٠ و ١٩٢٩ بعض القوانين المتعلقة بالزواج والطلاق لصالح المرأة فأصبح يحق لها أن تطالب هي الاخرى بالطلاق في الحالات الخطيرة التي يرتكب فيها الزوج مخالفات شديدة بحقها كأن يعاملها بقسوة شديدة أو يهجرها ليتعاطى الفحشاء مع غيرها . كما تمكنت النساء المصريات في سنة ١٩٤٧ من تعديل قانون العمل الخاص بهن والذي كان في غاية الاجفاف والارهاق فعدلت ساعات العمل وحددت الاجور بطريقة معقولة أكثر من ذي قبل .

وتكوّنت إلى جانب هذا النضال الاجتماعي صحافة نسائية تسنده وتشد من ازره وتنقله إلى الصعيد السياسي . فأنشأت ليلية هاشم مجلة بعد انتهاء الحرب الكونية الاولى أسمتها « فتاة الشرق » وتولت إدارتها والاشراف عليها بنفسها . وكانت المجلة تباع في مداوس البنات في كل من مصر وسوريا ولبنان ، وكان لها تأثير توجيهي لا يستهان به . كما أنشأ حزب اتحاد النساء المصريات في عام ١٩٢٥ مجلة أخرى كانت تصدر بالعربية والفرنسية وتدعى « المصرية » وكذلك أصدرت رابطة « فتيات النيل » مجلتين الواحدة بالعربية والأخرى بالفرنسية وتسمى الاخيرة « المرأة الجديدة » . وقد كان لهذه الصحافة التي صدرت عن المرأة وإلى المرأة تأثير قوي على الاوضاع القضائية والشرعية إذ حثت كبار القضاة والمشرعين على محاولة استصدار قوانين تتلاءم وظروف

المرأة الجديدة وتنشئ مع متطلبات الحق والعدالة . ولكن النظام الملكي رفض القيام بهذه الاصلاحات محاولاً بذلك كسب شعبية رخيصة على حساب الدين ، لاعتقاد فاروق بأن هذا سيكونه من بعث الخلافة من جديد وتنصيب نفسه خليفة على المسلمين ! ولم تتخذ الحركة النسائية موقف الهجوم إلا بعد انعقاد المؤتمر العربي النسائي واتخاذ مقررات ثابتة وواضحة . فابتدأت بشن حملة واسعة من الدعاية بواسطة الصحف والمجلات والاذاعة في سبيل تنفيذ هذه المقررات وتحقيق مطالب المرأة الاساسية . ومن المؤسف أن صرخاتها ذهبت مع الرياح دون أن يصغي أحد اليها ما عدا بعض الاوساط البورجوازية في المدن الكبرى ، أما في داخل البلاد فلم يصدر عن ملايين الريفيات أي رد فعل ظاهر ولم يعرفن حتى بوجود رابطة تمثلهن وتعمل من أجل رفع مستواهن . والواقع أن أعضاء هذه الرابطة ينتمين في غالبيتهم للطبقة الوسطى أو الغنية وليس بينهم من يمثل الطبقة الفقيرة من الشعب . فإذا كن قد حزن على بعض النتائج المشجعة لصالح نساء الطبقات البورجوازية الغنية وجميعهن من سكان المدن ، فإن وضع الفلاحات الريفيات ما زال في حالة بؤس مروعة . ولا يجب أن ننسى أن نساء الريف هن عماد اليد العاملة ، وأنهن يشكلن أكثر من نصفها بعدد هن البالغ أربعة ملايين . ومع ذلك فهن يعملن ويشغلن في ظروف لا تختلف كثيراً عن ظروف القرون الوسطى . وبكفي لتصور المشكلة الجسيمة التي يواجهها العهد الجديد بأن نعرف أن أجرة الفلاحة اليومية التي تعمل في

أرض أحد الاقطاعيين مدة اثنتي عشرة ساعة لا تضاهي تكاليف حمار واحد في اليوم أو نصف تكاليف البغل أو ربع تكاليف البقرة ..

وكان للحركة النسائية صدى عميق لدى علماء الأزهر الذين رأوا فيها خروجاً على التقاليد الدينية وتحدياً لها ، فأصدروا فتوى عنيفة شرحوا فيها بأسباب وتطويل وجهة نظرهم من قضايا المرأة . وقد عارض العلماء في فتوهم التي أصدروها في سنة ١٩٥٢ مبدأ منح المرأة حق الانتخاب الذي كان موضوع بحث في بعض الاوساط بحجة أن «ضعف المرأة الطبيعي» وتسلط الرجل المطلق على كافة ميادين الحياة العامة ، يمنعان إقرار هذا المبدأ . وتقول الفتوى كذلك إن المرأة بطبيعتها عرضة للتأثرات السريعة والعواطف الفورية ولا يمكنها أن تتحمل أعباء العمل السياسي وحرثاته ولا أن تنظر إلى الامور بعين ثابتة وذهن صاف مجرد ، ثم تخلص إلى أنه لا يمكن حتى للنساء المثقفات أن يمتلكن أنفسهن ويصمدن في وجه التقلبات ، بينما يمتاز الرجل برجاحة الرأي وسلامة المنطق . وإذا كان من واجب الرجل أن يهتم بتربية المرأة وتعليمها فذلك لكي تطلع بصورة أفضل على التعاليم الدينية وتفهّمها جيداً . وتانع الفتوى بشدة اشتراك المرأة اشتراكاً فعلياً في الحياة العامة لأنها ستضطّر بذلك للظهور في المجتمع وإلقاء الخطب وحضور الاجتماعات العامة مما يعرّض كيانها وسلامتها لأخطار محتمة ونحولات غير حميدة .

ولكن الامور تسارعت وتخطت هذه الآراء بعد أن قامت

الثورة وأعلنت الجمهورية وأقرّت مشاريع عديدة ملائمة لمطالب المرأة كإعطائها حقوقها الانتخابية . وخطت الدولة خطوات موفقة للعدّة من تعداد الزوجات فأصدرت قانوناً بحرم على الرجل المتزوج الاقتران بامرأة أخرى قبل الحصول على إذن مسبق من القاضي المختص الذي يحكم بنفسه ما إذا كانت ظروف الرجل وإمكاناته تبرّر زواجه ثانية . وأعطيت الصلاحية الكاملة للمحاكم لكي تفصل في قضايا الطلاق وتعين المحكمين الذين يحاولون إصلاح ذات البين بين الزوجين . وإذا لفظ الطلاق وكان بحجّ المرأة بحقّ لها مطالبة زوجها بالتعويض . وقد دخلت جميع هذه القوانين في حيّز التنفيذ في ١٦ كانون الثاني ١٩٥٦ عندما أقرّ الدستور الجمهوري الجديد في مصر الذي تضمّن بنداً خاصاً بالمرأة جاء فيه : « ان الدولة تؤمن للمرأة التوفيق بين دورها الاجتماعي ودورها في داخل العائلة » . وكانت هذه أوّل مرة في تاريخ مصر الحديث تقرّ فيها السلطات الدستورية بدور المرأة في المجتمع .

ويمكن القول إن الحركات النسائية في خارج مصر اقتصرّت على الاهتمام بالنواحي الاجتماعية أكثر من النواحي السياسية كإنشاء المستشفيات والمياعم ومدارس التمريض وما شابهها . ولكن هذا لم يمنع من ظهور نساء لعبن دوراً في شؤون بلادهنّ السياسية كالسيدة عفنان التي مثلت العراق في لجنة حقوق الانسان التابعة لهيئة الامم المتحدة . كما ان هنالك نساء اقترحن ميادين العمل التجاري فتوظفن في البنوك والشركات والمجلات الكبرى

برغم عدم التشجيع وبرغم المقاومة التي لقينها من نساء مجتمعهن المحافظ القديم .

وحى الأفغانستان ، القلعة الآسيوية المتسكة بانكماشها وانعزالها ، لم تستطع منع المرأة من الانطلاق في أجواء الحرية والابداع إذ تمكنت امرأة أفغانية من كابول العاصمة أن تصبح رسامة طبقت شهرتها بلاداً عديدة وبلغت الاوساط الباريسية حيث ينظر إلى فيها بإعجاب وتقدير . وقد اعتمدت النهج التكعيبي في لوحاتها على غط بيكاسو ، وإن كان تأثرها بالألوان البارزة ما زال يدل على طابعها الشرقي . وقدعى هذه الرسامة سيون شيكور وتنتمي والدتها إلى عائلة فرنسية وهذا هو السبب في تسميتها بهذا الاسم . وقد برهنت على مقدرة المرأة على العطاء والانتاج حتى في بلد شرقي لا تستطيع فيه أن تظهر ولو جزءاً بسيطاً من شخصها الغالي للأعين أثناء سيرها في الشارع .

إن الذي سيقود المرأة الشرقية إلى النصر المين في المستقبل هو التنقف الذي يأمل الجميع بأن تأخذ الحكومات ببادرة تشجيعه وتفتح بابه على مصراعيه . ولا يقع اللوم بسبب التخلف الكبير الذي نراه الآن في مجال التعليم على الحكومات بقدر ما يقع على الظروف الصعبة التي مرت بها البلاد إذ يجب ألا ننسى أن البلاد العربية بقيت رازحة تحت النير العثماني ردحاً طويلاً من الزمن ، جهداً فيه سلاطين بني عثمان لطمس معالم اللغة العربية والحضارة العربية . كما تتالت على هذه البلاد دول أجنبية كثيرة ، فحكم الطليان ليبيا منذ سنة ١٩١١ حتى نهاية الحرب العالمية الثانية . وتبعهم

الاحتلال الانكلو - فرنسي فوضعت مصر والسودان تحت الانتداب البريطاني ووضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي . ومع أن الأوروبيين فتحوا عدة معاهد ومدارس فإن براجمهم وطرق تعليمهم وعقليتهم لم ترض في شيء السواد الأعظم من الشعب . ومن البديهي أن المدارس التبشيرية العديدة التي أقاموها كانت تبث أفكاراً وتلقن مبادئ مخالفة للعقيدة الإسلامية ولأحكام الشريعة بما أثار نفرة سكان البلاد عليها وجعلهم ينظرون إليها بعين الحذر والتخوف . ولم يتدارك الغربيون هذه الحقوة إلا في الحقبة الاخيرة عندما تبينوا خطأهم وأرادوا إصلاحه فعمدوا إلى إنشاء جامعات ومدارس ذات صبغة حيادية نوعاً ما كالجامعة الأميركية في القاهرة ، والجامعة الفرنسية والجامعة الأميركية في بيروت ، فخففت من نفرة الشعب واجتذبت العديد من الطلاب العرب . والملاحظ في هذه الجامعات أن عدد الطالبات ما زال ضئيلاً بالنسبة لعدد الطلاب ولعل ذلك يرجع إلى أن ظروف الرجل مكنته من ارتياد دور العلم أكثر من المرأة .

إن مظاهر الفقر والمرض وسوء التغذية التي تخيم على بلاد عديدة في الشرق الاوسط أثرت بالطبع في أوضاع المرأة ومكنت من سيطرة الجهل عليها وتحكمه فيها . وتبقى الحال في المدن المكتظة بالسكان أفضل منها في المناطق الريفية النائية حيث يعيش أكثر من ثمانين بالمئة من مجموع السكان . فقد قامت في البلدان المنتجة للنفط صناعات جديدة وورشات للتنقيب عن الموارد الاقتصادية واستغلالها أدت الى تحسين أوضاع فئات كبيرة من

العمال . ولكن هذا لم يمنع تسلط البؤس والمرض والبطالة على سكان المدن الكبرى فأصبحت الجماهير محاطة بسور يمنع عليها الوعي الفكري والأخذ بأسباب الحياة الكريمة . ولا نتكلم عن الأرياف والقرى الصغيرة حيث تكاد سيطرة الشقاء والفقر تكون قامة فتجعل من الحديث عن العلم والتنقف حديثاً عقيماً لا جدوى منه . ويسوقنا هذا الواقع إلى التساؤل التالي : كيف يمكننا أن نبعث في أمر تحرر المرأة فيما لا يزال الرجل نفسه يزرع تحت وطأة الجهل والفقر المدقع ؟ فالمدارس الوحيدة التي تنتشر في أكثر المناطق الريفية هي « الكتاب » وهي مدارس قديمة قدم الزمن لم يطرأ عليها منذ عقود طويلة أي تطور أو تبديل . وهي عبارة عن صف موحد يديره الشيخ في زاوية أحد الجوامع أو عند جذع شجرة ظليلة . فيجتمع الصغار بين الخامسة والعاشرة من عمرهم ويتلقون مبادئ الدين والكتابة والحساب . ويمكن القول بأن « الكتاب » هو نوع المدارس الوحيد السائد في بلاد كالعربية السعودية واليمن وعمان والسودان مع بعض الاستثناءات بالطبع . أما في بقية بلدان الشرق الأوسط فيتعدى الأمر هذا النطاق فتدرس المواد بتعمق أكبر في معاهد ثانوية .

ولا يختلف الأمر تماماً إلا في المدن الكبرى والعواصم حيث نجد معاهد عالية ومؤسسات ذات اختصاص واسع تتبع برامج مفصلة وحديثة . ولكن عدد القرويين الذين يقصدها قليل مع الأسف ، ولن يزداد ما لم يتم رفع مستوى معيشتهم وتحسين حالتهم الاجتماعية فيمكن توجيههم حينذاك نحو الثقافة والمعرفة .

وصحيح أن التعليم الابتدائي مجاني في معظم هذه البلدان ولكنه ليس إجبارياً في عمان والسعودية والأردن واليمن والسودان . أما في سوريا ومصر ولبنان والعراق فالتعليم الابتدائي إجباري لجميع من هم بين السادسة والثانية عشرة للذكور والإناث وكذلك في الكويت ، البلد الصغير الفاحش الثراء الذي تمكن بفضل ثروات النفط من جعل التعليم مجانياً في جميع مراحل الابتدائية والثانوية . كما خصص منجاً دراسية لجميع الطلاب والطالبات الذين يودون إكمال دراستهم الجامعية في الخارج وأنشأ معهداً يُعرف باسم دار المعلمين يمكن الالتساب إليه لجميع الطالبات الحائزات على الثقافة المتوسطة والتخرج منه فيما بعد كمعلمات . وفي العراق سمحت الحكومة مؤخراً للطالبات بارتياح الجامعة أسوة بالطلاب ولكن نسبتهن ما زالت ضئيلة جداً بينما نراها مرتفعة أكثر في مصر حيث تفوق نسبتهن باقي بلدان الشرق الأوسط ومن ضمنها لبنان الذي يعتبر من البلدان الأكثر تقدماً من الغرب في طرق معيشته وعاداته .

ويتبع الطلاب من الجنسين نفس البرنامج خلال سني التعليم الست الأولى ويشمل عادة القرآن والتاريخ الديني واللغة العربية والحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا كما يشمل العلوم والتربية المدنية والبدنية والغناء والرسم والأشغال اليدوية . وبما يؤسف له أن فئة من الأهليين تعتمد إلى سبب بناتها من المعاهد بعد هذه المرحلة خشية تأثير الشارع أو الصف على أخلاقهن تأثيراً سيئاً . ورغم ذلك فإن الإحصاءات تدل على أن الفتيات اللواتي يكملن

دراستهن العالية هم عادة أكثر اجتهاداً ونشاطاً من الطلاب . ولكن يأبى غرور الرجال واعتدادهم بأنفسهم إلا أن يحرمهن نصيبهن في إدارة الأعمال والمساهمة في الحياة العامة أسوة بزملائهم من الذكور . والواقع يدل أن المرأة هي الوحيدة التي يمكنها النفوذ إلى أعماق روح بنات جنسها وبعث نعمة التحرر والانتفاض فيه . وهناك مجالات اجتماعية كثيرة لا يمكن ملؤها إلا بواسطة نساء متحررات من المفروض أن يشكلن « الطعم » الذي يجتذب بأفكاره الجديدة باقي النساء ويقودهن في طريق الحياة والنور . وقد أكد المؤتمر النسائي العربي الثالث الذي عقد في بيروت في سنة ١٩٥٤ هذه الاستنتاجات وبرهن بذلك عن حيوية المرأة العربية ونزعتها الثورية الجديدة . وتشكل مقدرات هذا المؤتمر تحدياً سافراً لبعض الفئات المحافظة التي شاءت أن تبقي المرأة في عزلتها وتمنع عنها نسيم الحياة الحرة وشرف المساهمة في بناء الوطن والمجتمع على أسس حديثة . وقد التقت في العاصمة اللبنانية رائدات الحركة النسائية في كل من مصر ولبنان وسوريا والاردن وفلسطين والعراق وعقدن اجتماعتهن في مبنى الاونسكو . وليس اختيار هذا المكان بالذات من قبيل الصدفة فمنظمة الاونسكو الدولية هي أرفع هيئة عالمية تهتم برعاية الثقافة والتراث الحضاري ومن البديهي أن تستضيف كل من يعمل على رفع شأن هذه الاهداف . واتخذت المجتمعات مقررات في غاية الاهمية تشكل الدعامة التي ستقوم عليها نهضة المرأة المساهمة في الشرق الاوسط . فطالبن أولاً بتطبيق القوانين الشرعية وأحكام القرآن المتعلقة

بتنظيم العلاقات الزوجية تطبيقاً صحيحاً وعادلاً ، وذلك بوضع حد لحالات الطلاق الناتجة عن رغبة طرف واحد ، وعدم السماح بها إلا إذا كانت لها مبررات ودوافع قوية على أن تخضع دائماً لإذن مسبق من القاضي وفقاً للقاعدة الدينية . كما طالبن بمنع تعدد الزوجات إلا في الاحوال الشرعية الضرورية ، وبفرض الشهادة الطيبة قبل الزواج وإجبار الزوج على دفع النفقة لزوجته في حال الطلاق ، وتكليف أفضل الزوجين بحضانة الأولاد وإعطاء الأفضلية للزوجة على أولادها في قسمة الوراثة لدى وفاة زوجها .

ونظراً لما تتعرض له العاملات من معاملة سيئة من أرباب العمل ولانعدام المؤسسات التي تهتم بشؤونهن وتقوم على رعاية حقوقهن ، قرر المؤتمرات مناشدة الحكومات العربية من تشريع نقابي عادل ومنح النساء الحوامل إجازات خاصة يتقاضين خلالها أجوراً كاملة « وقد يبدو هذا المطلب غريباً ونحن في منتصف القرن العشرين » وطالبن كذلك بدفع مخصصات عائلية للزوجة الموظفة إذا لم يكن زوجها موظفاً وتطبيق قوانين التأمين الاجتماعي على النساء وفتح أبواب الدوائر العامة والادارية أمام المثقفات أسوة بالرجال .

ولم تتوان المجتمعات عن فضح نواقص السياسة الاجتماعية بشدة في كافة البلاد العربية ، فأوضحن ضرورة رفع مستوى الجماهير الثقافي وتحسين أوضاع المعيشة بين القرويين ورفعته إلى المستوى « الانساني » على الأقل . وأعربن عن قلقهن كأمهات

لجنوح الأحداث المتزايد ورغبتهم في مساعدة النشء الجديد وإرشاده إلى الطريق القويم .

وبالإضافة إلى ذلك كله حرصن على إيضاح دور المدرسة وكتب المطالعة والسینا في تربية النشء الجديد وتوجيهه وضرورة مراقبة هذه الوسائل لما فيه خير الجيل الطالع .

ولكن النقطة التي استأثرت باهتمام المؤتمر وحظيت بالنصيب الأوفى من الدرس والمناقشة ونالت الموافقة الاجماعية الحماسية هي قضية الاعتراف بحقوق المرأة السياسية الكاملة . وهذه هي المرة الاولى التي أصرّت فيها النساء العربيات على الحصول على حقوقهن السياسية كاملة دون أي استثناء .

وأنهين بيانهم باقتراح أرسلنه إلى الحكومات العربية التي أقرت شرعة حقوق الانسان المتضمنة بندا خاصا عن مساواة الرجل والمرأة ، وطالبن فيه بأن تعيد هذه الحكومات إلى تطبيق هذه الشرعة في بلادها بصورة مقبولة ومرضية .

ويبدو لي أنه لو اتبعت مقررات المؤتمر النسائي الصادرة عن بيروت وطبقت جيداً لثم إصلاح أوضاع المرأة في الشرق الأوسط في مدة لا تزيد على ربع قرن ولأمكن تبديل العقلية القديمة المهترئة بأخرى حديثة واعية .

ولا بد من الإشارة هنا إلى بلد إسلامي عريق في إسلامه ولكنه غير عربي أعطى المرأة كافة حقوقها وقامت فيه حركة نسائية من شأنها النهوض بالمرأة وقيادتها نحو التحرر الكامل .

وبشكل هذا البلد مع إيران واندونيسيا ما يمكن تسميته بالقوة الثالثة في البلاد الاسلامية الآسيوية ، وهو الباكستان .

المرأة في الباكستان

يعتبر الباكستان أحدث مولود في مجموعة البلدان الاسلامية الآسيوية إذ لم يمض على استقلاله غير سنوات معدودات ، ولم يمنع هذا من أن يكون أنشط هذه البلدان وأكثرها حيوية . فهو يملك طاقة بشرية ضخمة يبلغ عددها تسعين مليون نسمة . وتفق مساحته مساحة فرنسا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا مجتمعة . ويتبع بحضارة عريقة هي من أعرق الحضارات الشرقية وأرفعها شأناً ، فقد تفتحت على أرضه مدينتا ضاهت في شهرتها مدينتا الكلدان والفراعة .

ويشكل الباكستان بحكم موقعه موقعاً سهلاً للغزوات وقد تعاقبت على وديان الهندوس أمم كثيرة منها الآريون والفرس واليونان في زمان الاسكندر ، والمغول وجيوش تيمورلنك . وقد جاء آخر هؤلاء كفاحين ومبشرين في آن واحد ، فعملوا معهم السيف من جهة ، ودين الله من جهة أخرى ، وأسسوا مدينة لاهور التي أصبحت فيما بعد حصن الاسلام الحصين في شبه القارة الهندية وعاصمة الابطرة المغوليين الذين يشكلون أعظم سلالة ملكية توالى على حكم الهند ودانت بدین النبي محمد منذ بداية القرن الخامس عشر . وبعد هؤلاء جميعاً جاء دور امبراطورية

صاحبة الجلالة !

وكان مسلمو الهند يزيد عددهم على تسعين مليون نسبة قد انضوا إلى الحركة الاستقلالية وأنشأوا في سنة ١٩٠٦ الرابطة الإسلامية التي اعتبرت نواة الدولة الباكستانية . وعندما اعترفت بريطانيا باستقلال الهند في سنة ١٩٤٧ انشطرت هذه الدولة إلى شطرين : الأول يدين بالهندوسية والثاني يدين بالاسلام . وبما يؤسف له أن هذا الانفصال الطائفي جعل من الباكستان دولة مؤلفة من شقين يبعد الواحد عن الآخر مسافة تزيد على الألفي كيلومتر من الأراضي الهندية . وإذا شاء المرء الانتقال من كراتشي إلى داكا عاصمة البنغال عليه قضاء يومين في القطار أو ست ساعات في الطائرة أو اثني عشر يوماً في الباخرة . وقد ضمت كشمير ، وهي ولاية تسود فيها أكثرية إسلامية ، إلى الهند عوضاً عن أن تضم إلى الباكستان لأسباب سياسية واقتصادية . فنشأت عن هذا الضم مشكلة خطيرة أدت إلى خلافات وأزمات مستعصية بين الدولتين غداة استقلالهما ولم تنته حتى الآن . ونشب خلاف آخر لا يقل حدة عن مشكلة كشمير في غربي البلاد على الحدود الغربية الشمالية الفاصلة بين افغانستان والباكستان ، ويدور حول ملكية أراضي البختنستان . وتدعي كل من الدولتين حقها في السيطرة على هذا الجزء وفرض التبعية السياسية عليه . وتعاني البلاد في الداخل أزمات ومشاكل اقتصادية كبيرة ناتجة عن انعدام التصنيع وم سوء الاستغلال الزراعي مما جعل مهام الحكومات الأولى التي تعاقبت على الحكم

في غاية الصعوبة . يُضاف إلى هذا كله حالة الفقر المدقع والجهل المطبق التي يعيش فيها تسعون مليون باكستاني منهم عشرة ملايين لاجيء ، وتريد فيهم نسبة الأميين على الثمانين في المئة ! ومن هنا جاءت ضرورة القيام بحملة جبارة وسريعة لتدارك مشكلة التعليم وإعداد اختصاصيين للهوض بالبلاد في الميادين الاجتماعية والاقتصادية . وقد ساهمت المرأة الباكستانية مساهمة فعالة ومجدية في هذه الحملة وعملت بعزم وإخلاص لنجاحها بما أثار إعجاب الجميع وتقديرهم . وأذكر هنا أن تحرر المرأة الباكستانية لم ينتج عن روح ثورية أو سياسية علمانية عصفت بالدولة كما هي الحال في تركيا بل العكس هو الصحيح ، إذ يؤكد الدستور الباكستاني الخضوع لمبادئ الدين الحنيف ويبرز صبغة الدولة الطائفية بإعلانه « جمهورية باكستان الإسلامية » . ويجب الاعتراف هنا بأنه ليس في العالم الإسلامي بلد يضاهي الباكستان في تمسكه بأحكام الدين عدا المملكة العربية السعودية . وبما يلفت النظر قيام تعايش مدهش بين المبادئ الدينية من جهة والمفاهيم الحديثة في مجالات الحياة العامة والخاصة من جهة أخرى ، وهذا دليل على إمكانية انسجام مبادئ الدين مع روح العصر الحديث انسجاماً مقبولاً ومعقولاً .

إن أية دولة في العالم لا يمكن أن تسمى حديثة ما لم تقر مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة . وقد دعت المرأة الباكستانية هذه الحقيقة وقامت من جهتها بجميع التزاماتها في خدمة المواطنين في كافة ميادين الخدمة الوطنية . وبرهنت بصورة لا تقبل الشك

عن مقدرة المرأة المسلمة على الاشتراك في الحياة العامة والقيام بواجباتها كمواطنة دون أن تفقد شيئاً من أنوثتها وخفرتها . إن الثورة الروحية التي تمت في الباكستان هي حافز مشجع لأن نتائجها أعمق وأجدي من نتائج الثورة السياسية . وفي رأي النساء المتحررات اللواتي يقدن ان بنات دينهن أخطأت في تسليمهن بتفوق الرجل عليهن ، فبات من حق الرجل اعتبارهن أدنى مرتبة منه .

ومن الذي يصدق أن مسلمات وادي الهندوس سيتمكن في غضون عشر سنوات من تكذيب هذا الاعتقاد الخاطئ عن تفوق الرجل على المرأة ودحضه؟ ولا يمكن في حال من الاحوال إنكار فضلهم في هذا المضمار مع العلم أن مسلمي الباكستان هم أكثر تقهماً واتساعاً في هذا الموضوع من مسلمي الشرق الأوسط ولم يأت يوم كان فيه وضع المرأة في تلك البلاد يتدنى عن وضع الرجل .

ولأول مرة في تاريخ الشرع الاسلامي سنّ قانون يقضي بالمساواة بين المرأة والرجل في حقل الوراثة العائلية والبيع والشراء والانفصال وقسمة الأرزاق والممتلكات . وأزيلت جميع الاعتبارات المنافية لحقوق المرأة وكرامتها من نظام العائلة الأخلاقي والتقليدي دون الخروج عن أحكام القرآن بل بتأويلها تأويلاً مقبولاً لا ينتقص منها شيئاً .

وقد بدأت سلسلة الإصلاحات في الباكستان باقناع بعض الفئات بأن نظام الزوجة الواحدة أفضل من نظام تعدد الزوجات

وأنه ليس من الضروري زواج الفتاة لدى بلوغها سنّ المراهقة ، بل يستحسن أن تزوج في الوقت الذي تختاره بملء حريتها وإرادتها فتتمكن بذلك أن تكون زوجة صالحة وربّة بيت ناجحة . ثم تطرّق الإصلاح إلى موضوع العرف القديم المتوارث الذي يقضي بفرض الزواج فرضاً على الفتاة من قبل أهلها فأقر اقتراحاً له طابع الإلزام يمنع الزواج دون موافقة الطرفين المعنيين مباشرة وبناء على اقتراح « رابطة نساء جميع الباكستان » تألفت لجنة خاصة لسنّ قوانين العائلة ، قوامها بعض الرجال والنساء يساعدهم قضاة مختصون ، وأخذت تعمل بروح ديمقراطية صرفة وفي منتهى الهدوء والحكمة على إصلاح التقاليد البالية واستبدالها وعرض ما ترتبته صالحاً على الشعب ليقرّه في استفتاءات شعبية . ومن التقاليد التي عاجلتها اللجنة تقليد ارتداء الحجاب وهو في الافغان والباكستان عبارة عن رداء طويل يغطي المرأة من قمة رأسها الى أخمص قدميها بما فيه عينيها ، كما أوضحنا وصفه في مكان آخر . ويستطيع من يتجول في شوارع لاهور وكراتشي التمييز بوضوح بين النساء « المتطورات » اللواتي يرتدين الساري الهندي والمحافظات اللواتي يتمسكن ببرقعهن ويرتدين الزي القديم . وارتداء هذا الزي الأخير يتقلص بصورة ملموسة ولا تزيد نسبته في المدن عن ٢٠٪ ولا تحاول السلطات المسؤولة فرض أي ضغط أو القيام بأية محاولة عنف لنزع الحجاب عن الوجوه المحافظة كما حصل في تركيا ، بل تترك لكل شخص حريته المطلقة . وقد شنت رابطة النساء الباكستانيات حملة بين جميع الطبقات

الشعبية وخاصة الطبقات الفقيرة استهدفت لإقناع الاهلين بإرسال قتيانهم إلى دور العلم ومراكز التعليم المهني ، كما استهدفت نشر قواعد التربية المدنية والسياسية ومفاهيم المسؤولية والتضامن الاجتماعي من جهة ثانية .

وقد أنشأت هذه الرابطة التي لا تعرف الكلل تعاونيات زراعية لتأمين العاطلين عن العمل واللاجئين ، فأرست بذلك قواعد النظام التعاوني الوحيد من نوعه في جميع البلاد الشرقية . وهذا البلد هو الوحيد الذي تأخذ فيه المرأة زمام المبادرة في حقل التربية المدنية باسم الجمهورية !

وبوسع الباكستانيات الانتساب إلى جميع المناصب الهامة دون استثناء ولم تحرّم عليهنّ أية مهنة كانت وتغلغل منهنّ جيش لجب تمكنّ في بضع سنوات من احتلال مناصب كانت فيما مضى وقفاً على الجنس الحشن دون ان يلقين أية مقاومة او معاكسة لاختيارهنّ ، وقد بلغ بهنّ الامر الى حدّ اكتساح الجيش ..

وترتدي الشابة المتطوعة في البحرية العسكرية القبعة والبزة البيضاء والطوق الأزرق وتقوم بمهمتها الدقيقة كمساعدة في منتهى الجدّ والنشاط . وقد جدّ كذلك فتيات في الجيش البرّي والجوّي يعملن كطبيبات وممرضات . وقد شاهدتُ بنفسي فتيات في ربيع العمر يسرن في استعراض عسكري في يوم الاستقلال مرتديات البزة الرسمية ومقسّيات إلى ثلاثة جحافل أي ما يعادل ٢٤٠٠ فتاة . وكانت بينهنّ الممرضات والمنجّدات وفرقة الدفاع المدني وأخيراً فرقة « الاطفائيات » الجحيلات اللواتي كنّ يسرن

كالحاربين القدماء بخوذهم الفولاذية وعبونهم تلمع ببريق بشيع الأمل والطمأنينة لأنهنّ مؤمنات على الأقل بمثل أعلى يعملن في سبيله !

وقد لاحظت ، بعد ما تسنى لي زيارة هذا البلد الجديد عدّة مرات ، ان المثالية في أروع مظاهرها وأكملها هي الينبوع الذي تستمدّ منه الشبيبة قوتها ونشاطها . وقد خطر لي أثناء تحدّثي إلى بعض طالبات كلية الطب في لاهور أن أسأل أجملهن وأنشطهن على ما ظهر لي ، عن كيفية قضاء أوقات فراغها ، فأجابتنني ببساطة : « إنني أقرأ في أوقات فراغي كتب التاريخ التي تثير إعجابي وأرافق فرقة الخدمات الاجتماعية مرة كل أسبوع في جولاتها في القرى لتوزيع الاغذية على المحتاجين » . لم تكن هذه الفتاة تتجاوز السابعة عشرة من عمرها ولم تكن والدتها تحسن القراءة والكتابة لأن ظروف عصرها منعتهما من ذلك . أما هي فشاء حسن طالعتها ان تدرس الطب وان تنهل ما شاءت من ينابيع العلم والمعرفة .

إن ما يهمّ جميع نساء الباكستان هو رفع شأن بلادهنّ وتطوير حياة الشعب من النواحي الخلقية والفكرية والمادية والمحافظة على التراث الحضاري الناتج عن أجداد الماضي البعيد . وقد ينّهنّ البلاد بما يمكن تسميته : نهضة الفن الباكستاني . فقد أنشأت رئيسة رابطة نساء الباكستان وهي اليجوم لياقت علي خان مركزاً صناعياً وفنياً بالقرب من كراتشي وزودته بكل ما يحتاج إليه واستقدمت للعمل فيه العديد من الصاغة والرسمين

والنحاتين وأعطت لكل واحد منهم مشغلاً خاصاً مع كافة الأدوات اللازمة للعمل وضمنت لهم أسباب العيش الكريم وطلبت منهم في المقابل ان يعملوا على خلق صناعة فنية مميزة للفن الباكستاني . وبدأ الرجال والنساء في العمل الجدي المتواصل وأخرجت أناملهم وأقلامهم وأدواتهم بعد انقضاء سنتين من العمل مجموعة غنية من الأشياء المنحوتة والسيراميك والكؤوس وصناديق الخشب المصقولة والمنقوشة .

وأبدعت المرأة من ناحيتها في فن التصوير الزيتي فبرزت في السنوات القليلة الماضية باقة من الفنانات الرسامات كلهن في مستقبل العمر طبقت شهرتهن كافة أرجاء الوطن وامتدت إلى الخارج . ويرتاد مدرسة الفنون الجميلة عدد من الطالبات يفوق عدد الطلاب وبما يجتذب فتيات البنجاب ويؤثر في فنهن عظمة الهندسة المغولية المعمارية القديمة وروعة أشكالها ورونقها الاتخاذ . والواقع ان معظم الفنانات الحديثات يأتين من منطقة البنجاب التي تحوي أثمن كنوز الحضارة المغولية . وإذا كان تأثير عظماء الماضي كبيراً على فنانات الباكستان في بدء ممارستهن الفن فهن لا يلبثن بعد ثبات شخصيتهن من تقبل تأثيرات فن التصوير الحديث أو الغربي . فيحاولن الجمع بين المميزات الشرقية من ناحية ومميزات الفن الحديث من ناحية أخرى في سبيل خلق مدرسة جديدة خاصة بهن لا تتمسك بالفن القديم ولا تعتمد الفن الحديث . وتحمل لوحاتهن دليل نجاحهن في الطريق الذي رسمنه لأنفسهن . وتؤلف بعض أولئك الفنانات ندوات تلتف حول البارزات منهن مؤملات

بذلك تشجيع الفن وزيادة هوائه . ويتميز إنتاجهن بطابعه الغنائي وتعبيره عن حب الحياة والطبيعة والعيش الطليق ، كما تبدو عليه آثار رومانطيقية ناجمة عن استعمال الألوان البارزة . وطبيعي ان تشغلن العاطفة التي هي وليدة الأشياء المحسوسة عن الاهتمام بالتصوير المبهم الخيالي أو السريالي . وتتمتع السيدة أمست رحيم بأوفر نصيب من النجاح بين زميلات الفنانة لمحافظة على مثالها الشرقي والاحتفاظ إلى جانب ذلك بالمركز الأول في المحاولات الفنية الجريئة وهي تريد إعطاء الفن الباكستاني دفعة جديدة إلى الأمام تحرره من التأثير الشرقي والغربي على السواء وتضفي عليه طابعاً خاصاً به .

وينجلي هذا التوثب التلقائي الهائل في روح المرأة الباكستانية الذي يريد ان يتولى بنفسه شق طريق الازدهار والمجد الوطني بأروع مظاهره على الصعيد السياسي الوعر المسلك والخطر المنفرجات . وقد أثارت الباكستان الدهشة بين كافة البلدان الشرقية للدور المتزايد الذي تلعبه المرأة في الحياة السياسية . وتبرز في هذا الميدان امرأة غدت رابطة نساء الباكستان بمختلف الوسائل وأعطت حركة تحرر المرأة مسلكها الثوري الاجتماعي . واسم هذه المرأة منتشر في جميع أنحاء البلاد ويراها المرء في عناوين الصحف والمجلات النسائية ومنظمات العمل ولجان التدريس وخاصة في دواوين وزارة الخارجية والمحافل الدبلوماسية وليست صاحبة سوى البيجوم لياقت علي خان . إنها رمز تحرر المرأة وارتو هي سيدة نشيطة اتخذت منها مواطناتها مثلاً حياً يحمل

أمامهن المشعل ويقودهن في طريق الحرية . ولقد تأثرت أنا نفسي
بنظرات هذه المرأة المدهشة وحديثها المشوق عندما التقيت بها في
لاهاي حيث تمثل بلادها كسفيرة لدى الحكومة الهولندية .
وكانت تلك المرة الأولى في حياتي كمستشرق أدخل فيها سفارة
شرقية يتلقى فيها الرجال أوامرهم من النساء . ذلك أن سكرتارية
السفارة هي أيضاً في يد امرأة إسمها البيجوم كاي ماياز . وأكاد
أجزم بأنه لن يكون بوسع أي شرقي، ولو محافظ، يتمتع بقسط
من الذكاء أن يقاوم شخصية السيدة علي خان . إن حياتها المتقلبة
الثيرة وشخصيتها القديمة تعبر عن نفسها وتبهرن على أنها تستحق
بجدارة أن تكون المرأة المسلمة الأولى التي تعين كسفيرة في
تاريخ الإسلام كله . وهي متمسكة بعقيدتها الدينية لا تدع مجالاً
للمتشككين لكي يبتوا عنها الأضاليل ، وقد تمكنت من جعل
المرأة الباكستانية تسير في خط متوازن بين التعصب المتزمت في
بلدان الشرق الاوسط والتحرر المطلق في بلاد آسيا الاشتراكية .
وسأروي قصتها كما سمعتها من البيجوم كاي ماياز وهي تدل
على ان مثيلات هذه المرأة قليلات حتى بين نساء الغرب المثقفات .
وولدت البيجوم في إحدى ليالي الشتاء في مدينة صغيرة تدعى
« المندرا » في الولايات الهندية المتحدة . وكانت الثالثة بين أربع
أخوات وخمسة أخوة وتمكنت بسرعة من السيطرة على « العقبة »
العائلية في ألعابها ومغامراتها الصبائية . ونالت أولى شهاداتها في
ثانوية ثويرن ثم التحقت بمعهد لاكنو ثم مكنتها شخصيتها الفذة
وحيويتها من القيام بدور بارز في الحياة الطلابية ... وقد سببت

لها صفاتها هذه وما تتمتع به من روح مرح ونكتة ، متاعب
عديدة مع أساتذتها ! ولكنها ، كما قال أحدهم في حفلة مدرسية ..
كانت أنتى وجدت تخلق حولها جواً من الحركة والنشاط ..
إن طالبة يمثل هذه الحيوية والذكاء في آن واحد مآل تفاؤل
ومسؤولية .

وبعد ان حصلت على درجة مجاز في الآداب تسجلت بجامعة لاهور
وكانت الفتاة الوحيدة في صفها بين الطلبة الذكور ونالت درجة
ماجستير في الاقتصاد وعلم الاجتماع وهي درجة وسط بين
الليسانس والدكتوراه . وكان موضوع أطروحتها « اليد العاملة
النسائية في مقاطعات الهند الجنوبية » وفازت بالدرجة الأولى على
جميع المتقدمين فاستحققت نهائي أساتذتها وأعضاء اللجنة الفاحصة .
وفي السنة التالية تابعت دروسها في جامعة كلكتوتا وفازت
بشهادة أهلية التعليم النظري والعملية .

وبعد انتهاء دروسها مارست مهنة التعليم مدة لا تزيد عن
الستة أشهر في أحد معاهد كالكتوتا ثم عهد إليها بمنصب أستاذ
العلوم الاقتصادية في كلية الهند للبنات في مدينة دلهي وقد
خلفت ، خلال مدة تدريسها العابرة التي لم تتعد السنة ونصف
السنة ، أطيّب الذكريات في نفوس زملائها وطالباتها .

وعين زادة لياقت علي خان (الساعد الأمين لمحمد علي جناح
في النضال من أجل الاستقلال) الذي تزوجته في عام ١٩٣٣
رئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع في حكومة الباكستان عندما
نالت البلاد استقلالها في عام ١٩٤٧ . وقد تمكن هذا الرجل

العظيم من تخليص بلاده من برائن الانحلال والانزامية التي كانت تهدد بلاده بعد وفاة محمد علي جناح. فجمع حوله الشعب المؤمن بوحدته وعقيدته وقاده في طريق القوة والتقدم والازدهار. وقد أصبح مثلاً في التضحية ومحبة القريب والتسامح والسلام والعدل حتى أنه دفع ثمن مبادئه هذه من دمه وحياته عندما اغتالته يد مجرمة في ١٦ أكتوبر ١٩٥١ في اجتماع عام في إحدى المدن الكبرى. وقد بقيت ذكراه حية في ذهن شعبه الذي رفعه الى مصاف الأبطال الوطنيين. وتابعت زوجته من بعده أداء المهمة التي نذر نفسه من أجلها. وحتى ما قبل وفاته، عندما كان يتولى الأمانة العامة الشرفية لرابطة مسلمي جميع الهند التي يرئسها «القائد الأعظم محمد علي جناح» كانت زوجته تساعد كسكرتيرة خاصة. فتعلمت الطبع على الآلة الكاتبة وتولت بنفسها الاهتمام بمراسلات الرابطة التي كانت آنذاك في حالة من العجز لا تسمح لها باقتناء مكتب بالمعنى الصحيح. وكشأنها في حياة زوجها الخاصة كانت في الحياة العامة نعم المرشدة المخلصة والمرافقة الأمينة لزوجها. وقد مكنتها شخصيتها الجذابة ومنطقها المغري من تذليل الكثير من المصاعب والحصول على العديد من الصداقات. كما علمتها الأحداث والتجارب أشياء كثيرة زادت من خبرتها ومعرفتها الدقيقة للأمور.

وبعد مرور زمن قصير على ولادة باكستان في عام ١٩٤٧ والمذابح التي تبعته وتسببت في تشريد ملايين المسلمين من منازلهم وقراهم دون أن يرتكبوا ذنباً، نقل رئيس الوزراء مقره

إلى مدينة لاهور. وفي هذه البقعة كان اللاجئين يتدفقون عبر الحدود بالآلاف وهم في حالة يرثى لها من الجوع والعري والمرض. وكانت جثث الآلاف من الموتى والمنازعين تملأ جوانب الطرقات. وبما زاد الحالة سوءاً على سوء تقشي وباء الكوليرا بينهم. ونفذ دواء التطعيم من باكستان وكان من المستحيل الحصول عليه من الهند، وعجزت المستشفيات التي كانت تسودها الفوضى عن استيعاب جميع المرضى. وكان النقص شاملاً لأن من ناحية الأسرة أو الهيئات المسؤولة عن الأدوية. وحالت صعوبة المواصلات وتوزيع الأغذية والمؤن والامكان دون نجاح الجهود المبذولة.

ولكن كيف تمكنت نساء باكستان اللواتي لم يكن أبداً مستعدات لمثل هذه المهمة من القيام بما أوكل إليهن والغلب على المصاعب بطريقة عجيبة مدهشة! ولقد أنشأت البيجوم لياقت علي خان مكتب التطوع النسائي لكي تنسق وتنظم عمل آلاف النساء اللواتي استجبن لندائهن المؤلم وتمكن بذلك من مساعدة سبعة ملايين لاجئ على اجتياز الحدود الباكستانية في غضون السهور السبعة التي تلت.

لقد قطعت هذه المرأة ونذرت نفسها لخدمة هؤلاء المساكين الذين فقدوا كل ما يملكونه تاركة ولديها الصغيرين أشرف وأكبر الذين يبلغ أحدهما العاشرة والثاني السادسة من عمره في العاصمة كراتشي. وكانت تعتنى بالمرضى عندما يأتي دورها وتزور الخيمات وتنظم شؤون النقل وتقود بنفسها سيارة شحن أثناء الليل

وتوزع الأغذية والملابس والاطعمة لجميع الذين لم يتمكنوا من الالحاق بأحد المخيمات أو مراكز التوزيع . وقد كان لشجاعتها وطبيعتها أحسن الأثر في مختلف النفوس وكأنما سرى التيار الحماسي الذي بثته إلى جميع نساء الباكستان المسلمات اللواتي لم يكن قد خرجن أبداً من منازلهن واختلطن بالمجتمع ، فتوافدن بالملات وعملن بدون كلل ولا انقطاع في المستشفيات والمخيمات الموقفة على الطرقات . فأنشأت مكاتب لتجميع ونقل العمال وأخرى للزواج وأخرى للأشياء المفقودة . كما حملتها كثرة عدد النساء اللواتي « خطفن » بأحدث أساليب الخطف على إنشاء مأوى خاص بهن وقد تجاوزن الستين ألفاً !

وقد زاد نقص الممرضات الكفوآت في هول المصيبة وأثرها . فأطلقت نداءً جديداً موجهاً إلى فتيات الباكستان المثقات وإلى ذويهن ، مع علمها بأن هذا العمل يخالف للتقاليد والاعتقادات السائدة ، ناشدتهن فيه مديد المساعدة . وفي الوقت نفسه طالبت بتعديل القوانين الاجتماعية السائدة وزيادة الأجور ، واجتمعت إلى مجالس إدارة المستشفيات واستفهمت عن كل كبيرة وصغيرة من الأطباء والمسؤولين وحتى وزراء الدولة . ودعت الممرضات الشابات إلى حفلاتها وشكرتهن على ما أدينه من خدمات أثناء المحنة التي عصفت بالبلاد .. وبفضل جهودها الحميدة نرى اليوم الفتيات الباكستانيات يتوكلن بلادهن للدراسة والتخصص في الخارج . وقد يصعب علينا نحن الغربيين فهم هذا الأمر على حقيقته وتقديره حق قدره . ولكن الذي حصل هو أن هذه المرأة تمكنت في غضون

سنتين من تحقيق جميع هذه الاصلاحات برغم ما كان يرتع فيه الشعب من جهل وفقر ومرض ، وهذا عمل مدهش جبار يصل إلى حد الأعجوبة .

وقد حمل تطور مكتب التطوع النسائي المستمر السيدة وعانة لياقت علي خان على إنشاء اتحاد وطني متين يكون من شأنه تنظيم مختلف نشاطات العمل النسائي . وعلى هذا الأساس جمعت في منزلها في ٢٢ شباط ١٩٤٩ أكثر من مائة امرأة يشكلن العناصر النسائية البارزة في جميع أنحاء البلاد وشكلت « الرابطة النسائية لعموم الباكستان » . وهذه الرابطة غير حكومية وتقبل في عضويتها جميع نساء الباكستان بغض النظر عن الدين أو الطبقة التي ينتبن إليها ومن أهدافها رفع المستوى الاجتماعي والحقوقي والسياسي والثقافي لكافة المواطنات . وتمتد فروع الرابطة في مختلف الاقاليم ويبلغ تعداد أعضائها عدة ألوف . وتشترك في هيئات نسائية دولية ووطنية عديدة وتحضر اجتماعات دورية وسنوية . وانتشر الوعي بفضلها بين نساء الباكستان المحافظات اللواتي كنّ يعشن في عزلة شبه تامة وبدأن يلعبن دوراً إيجابياً بناء . لقد حدثت ثورة هائلة دون عنف أو حزازات أو مظاهر صخب وذلك كله بفضل حكمة الرئيسة المؤسسة التي كثيراً ما اضطرت لبذل تضحيات جبارة للحفاظ على هذا النهج السليم الآمن . وقد حضرت مؤتمر لاهور في سنة ١٩٥٢ وفود نسائية عديدة من مصر وإيران والعراق ولبنان واندونيسيا وتركيا بالإضافة إلى خمسة مندوبة وطنية ومراقبات عن مؤسسة فورد وجمعية

للشابات المسيحيات ومختلف المنظمات الاخرى .

وتهم البيجوم لياقت علي خان بصفتها ربة بيت ومربية ،
بمشاكل التربية المدنية وبناء الاسرة على أسس جديدة ولها في هذا
الشأن عبارة مأثورة لا تكف عن ترديدها وهي : إن تربية الولد
معناها تربية فرد واحد أما تربية الفتاة فمعناها تربية أسرة كاملة .
وقد اعتمدت برنامجاً هاماً واسعاً للدعوة إلى نشر الوعي القومي
بواسطة البيت والمدرسة والمجتمع والهيئات البلدية والحكومية
وبمساعدة الأمم المتحدة وهيئات دولية أخرى ، ولكن عقبات
ومشاكل كثيرة حالت دون تنفيذ هذا البرنامج .

وتعلقت السيدة علي خان أهمية كبرى على الثقافة من حيث هي
تفتح فكري وروحي وعاطفي ولا تفتأ تردّد على مسامع المربين :
« إن التربية التي تبدي تسامحاً مبهماً وضيق نظر في معالجة القضايا
الهامة وتنبه الشعب الى ألوان جديدة من حياة الترف واللهو
تتطلب موارد وإمكانات لا يملكها هي تربية خاطئة وغير مجدية »
وقالت خلال دفاعها عن الابحاث العلمية الاضافية المتعلقة بموضوع
اقتصادي : « إن العلم يقود إلى أفدح الشرور والمصائب في العالم
ولكنه يقود كذلك نحو البناء والتعمير . إن دور الجامعة في
الابحاث العلمية هو إعطاء الافضلية للقوى الخيرة وتوجيه
الطلاق في حقل البناء السلمي » . وقالت للطلاب : « افتحوا
أنظاركم وعقولكم جيداً وأرهقوا حسم واعملوا دائماً في سبيل
البناء لا الهدم والاغاثة لا الابادة ورفع حياة الشعب وعقائده لا
الخط منها » .

وقد ساهمت في إنشاء « المجلس الوطني للشبيبة الباكستانية »
التابع لرابطة الشباب الدولية ورابطة جامعة كراتشي النسائية ،
ونادي كراتشي النسائي التجاري والمهني .

وقد رافقت السيدة وعانة زوجها لياقت علي خان في معظم
أسفاره . فطافت أنحاء الباكستان والشرق الاوسط والمملكة
المتحدة ، أثناء انعقاد دورات الكومنولث من سنة ١٩٤٨ إلى
١٩٥١ ، والولايات المتحدة الاميركية وكندا في سنة ١٩٥٠ .
وفي زيارتها للبلدين الاخيرين تقاسمت مع زوجها الزيارات الرسمية
والخطب والمقابلات والنشاط الاجتماعي في مختلف أوجهه .

وقد أعجب الامير كيون بزوجة رئيس وزراء الباكستان
لجاذبيتها وذكائها ، وهرّوا بنشاطها الديناميكي فسموها « المحرك
الحريري » . وأعطيت لقب عضو شرف في مختلف الهيئات التي
زارتها كما أنعم عليها بعدة أوسمة وامتيازات منها مدالية جين
آدامس ولقب مواطنة شرف في ولاية تكساس . وعيّنت في
عام ١٩٥٢ عضواً في وفد الباكستان إلى الدورة السابعة لهيئة
الأمم المتحدة في نيويورك ، وانتخبت في لجان الشؤون الاجتماعية
والانسانية والثقافية . ولكن ما جعل منها «رسولة النوايا الحسنة»
عن حق وجدارة هو اتصالاتها الشخصية وأصداؤها الجدد
والقدماء .

ولدى عودتها إلى كراتشي أسست ما يحلو للبعض تسميته
هيئة الأمم المصغرة . والواقع أن النادي النسائي الدولي
يضم ما يقرب من مئتي سيدة من عضوات البعثات الدبلوماسية

والتحدث إليهم ومشاركتهم أفراحهم. وخلاصة القول انها امرأة هيفاء ناعمة دائمة التفاؤل شديدة الجاذبية تعتبر من أبرز سيدات عصرنا ولا يسعنا إلا أن نتوجه إليها بكل إعجاب وتقدير.

الموأة التركية

علينا أن نتكلم الآن عن جزء كبير من العالم الاسلامي قطع جميع صلاته مع ماضيه وتقاليده. وهذا الجزء هو تركيا. إن شكل الحياة الجديد في تركيا ليس حلاً وسطاً بين مقتضيات الدين ومقتضيات العقل فحسب، بل هو تركيز لوضع علماني بقفزة ثورية.

إن التناقض الذي يلحظه المرء عندما يقطع تلك المسافة القصيرة الحالية من السكان التي تفصل الحدود العراقية السورية عن حدود الجمهورية التركية جد عميق. هنا في هذه البقعة يمتلك الانسان شعور بأن وحدة الخصائص الاسلامية الممتدة من المحيط الى الخليج قد انبثرت. عند هذه الحدود يقف كل شيء: العطور التي لا توصف والموسيقى الرتيبة التي تسمع في كل مكان وتخرج من حيث لا تدري، و«الكوفيات» البيضاء، والخناجر ذات القبضات المرصعة، ورائحة الأفاويه، والمحامص التي تفوح من الأسواق، والصلوات، ودخان حشيشة الكيف المنبعث من المقاهي الصغيرة المفروشة بالسجاد الأحمر، والطاولات الصغيرة، وكؤوس الشاي...

في كراتشي والشركات والهيئات الاجنبية بالإضافة إلى النساء الوطنيات. ويهتم النادي بأوجه نشاط عدة منها الفن والادب والموسيقى وإقامة المعارض وإلقاء المحاضرات وتعليم اللغات الاجنبية وإقامة الحفلات والولائم. ومع أن عضويته مقصورة على النساء، يحق للرجال الحضور في المناسبات بناء على دعوة من زوجاتهم أو قريباتهم بما يدل على أن: «الحركة النسائية الباكستانية ليست معادية للجنس الحشن» وهذا ما تفخر به البيجوم.

وفي ١٤ أيلول ١٩٥٤ عينت السيدة علي خان سفيرة لبلادها. وتشاء الصدفة أن تعين في منصبها من قبل امرأة هي اليزابيث الثانية (لم تكن الباكستان قد أصبحت بعد جمهورية في الكومنولث) عند امرأة أخرى هي جوليانا ملكة هولنده. ومن أسباب قبولها هذا المنصب رغبتها في فتح الطريق أمام غيرها من نساء الباكستان والعالم الاسلامي، وحمل رسالة بنات بلادها إلى الخارج...

إن رعاية لياقت علي خان تخفي وراء أنوثتها ونعومتها الظاهرة إرادة صلبة قوية. إنها لم تحد أبداً عن المبادئ التي رسمها زوجها وبقيت الشعلة المضئية التي تقود نساء الباكستان نحو التقدم الاجتماعي برغم المسافة البعيدة التي تفصلها عنهن. وهي تقوم بدورها كسفيرة واعية لواجباتها مدركة لحقوقها على أكمل وجه وبإخلاص كلي وصراحة متناهية.

ولم هذا كله فهي تهوى سماع الموسيقى ومطالعة الكتب المفيدة في أوقات فراغها. ولا تمانع في اللهو البريء مع أصدقائها

إن جميع هذه الأشياء والالوان والميزات الخاصة بالبلدان الشرقية قد اختفت في بقعة الارض تلك الممتدة بين الحدود . وأما ما وراء الحدود من الجهة الثانية فلم يُبقَ إلا على بعض المساجد العثمانية القديمة ترتفع من فوقها المآذن البيضاء لتنتقل ذكرى الامبراطورية العثمانية ، امبراطورية الباب العالي ، مذكرة العالم ان تركيا كانت بلداً متديناً . أما اليوم ، فكأنها حتى في ذلك أيضاً ، تثبت كفرها .

إن رياح ثورة عاصفة قد مرت من هنا ... فاقتلعت ومحت بقساوة جميع المظاهر الشرقية الاجنبية الممتدة في الجهة الاخرى من الحدود . فإرادة أتاتورك الثائر قد حققت المعجزات التي لم يتجرأ على تحقيقها رجال الدولة المتدينون سواء أكانوا شرقيين أو أوروبيين .

ففي سنة ١٩٢٢ خرجت تركيا منتصرة من حرب ضد أربعة جيوش أجنبية وقد حددت تحومها في معاهدة لوزان في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٣ ، فأعلن المجلس الوطني التركي أنقرة عاصمة للدولة لكي يمحو مع اسم القسطنطينية ذكرى دولة السلاطين . وكانت تتحكم بهذا المجلس الوطني المكلف بوضع اول دستور ديموقراطي للشعب التركي ، الشخصية الفريدة التي كان يتمتع بها القائد المنتصر مصطفى كمال ، « مخلص الوطن » الذي سمي في ما بعد كمال أتاتورك ، فعند انتخابه رئيساً للجمهورية أطلق عليه المجلس الوطني اعترافاً بجميله وتقديساً لما تكنته الأمة من عظيم التقدير لأقدر أبنائها ، اسم أتاتورك ، أي : أب الأتراك ، وذلك في قانون

اص صدر في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٤ .

وكان النواب والوزراء يوافقون على أجراً التطورات وأخطر المشاريع بالنسبة لواقع تركيا الدبلوماسي ويتبنون جميع القرارات حتى الجهنمية منها في سبيل قطع جميع الصلات مع ااضي وإعطاء المستقبل وجهاً جديداً في الوقت الذي كان كل منهم يشعر بقرارة نفسه ان هذه الاجراءات تتنافى مع تربيته ومع طريقته الخاصة في النظر الى الامور . والبعض من الذين شعروا بينهم وبين أنفسهم بأنهم يعانون ضغطاً فكرياً دائماً حيال هذه الثورة ، حاولوا مراراً التصدي لسطوة أتاتورك المتزايدة ، لذلك فإن أتاتورك لم ينجح في توطيد منهاجه الجريء وفي تحطيم جميع أوكار المقاومة بدون التدابير العنيفة . وهو لم يلجأ إلى العنف إلا لعله الاكيد ان انصاف الحلول غير مجدية للخروج بتركيا من الوضع اليائس الذي حل بها على أثر الحرب الكونية الاولى . فبرفضها للعهد العثماني وبإنكارها الباب العالي كان على تركيا ان تدبر ظهرها حتماً للتقاليد الشرقية وللشرق نفسه . والحق يقال انه ما كان بمقدور أي رجل آخر سوى أتاتورك ان يقود حتى النهاية مغامرة خطيرة كهذه .

فعلى أثر كل إصلاح جريء كانت تزداد الهوة اتساعاً بين الحكم الجمهوري التركي والعالم الاسلامي . فالقرار الذي لوحق على اساسه جميع الاشخاص الذين استغلوا الدين لأغراض سياسية كان أول القرارات التي أساءت الى الدول الاسلامية فهو يستهدفها جميعاً بشكل غير مباشر لأنه كان من الصعب عليها أن

تفصل بين الحياة السياسية والحياة الدينية .

فصل الدين عن الدولة أصبح أمراً واقعاً حررت على أثره حياة تركيا العامة من سيطرة رجال الدين ، وأما التعصب عند الشعب فقد حارب قدر الامكان بتدابير إدارية وتربوية . وقد عمدت السلطات الثورية لكي تطيل أمد هذا التحرر إلى تحريم بعض المذاهب الدينية وإلى إقفال أديرة الدراويش وإلى منع حراسة قبور القديسين .

وقد ألغى من برامج التعليم العلمانية تدريس القرآن في الصفوف الابتدائية . كما ترجم القرآن الى التركية ومنعت الطبعات العربية من الصدور وحرّم على المؤذنين دعوة الناس الى الصلاة بالعربية . وحتى الالقاء الدينية التي تلقى شديداً الاحترام في سائر البلدان الاسلامية قد ألغيت . وحظر أيضاً في قرار لاحق على جميع رجال الدين من أي طائفة او دين كانوا ، ارتداء الملابس الدينية خارج أماكن الصلاة . وفي سنة ١٩١٧ اعتمدت تركيا الروزنامة الغريغورية « الشيء الذي أساء أكثر من سواه الى الدول الاسلامية الأخرى » وذلك يعني ان تركيا مع بقائها بلداً مسلماً ، فهي لم تعد تحسب السنين من تاريخ الهجرة في ١٦ تموز سنة ٦٢٢ . واعتمدت أيضاً في أول كانون الاول سنة ١٩٢٦ اليوم المؤلف من ٢٤ ساعة بينما كان اليوم في الشرق المسلم يبتدىء من غروب الشمس لا من نصف الليل .

وفي سنة ١٩٣٥ أعلن يوم الاحد يوم العطلة الاسبوعية بدلاً من نهار الجمعة . وجاء أخيراً قرار حكومة أنقرة يستبدل الحروف

العربية بحروف لاتينية ليقطع نهائياً ما تبقى من صلات بين الشرق المسلم وتركيا . وعلى أثر هذا القرار افتتحت مدارس وطنية لتدريس الكتابة والقراءة بالابجدية الجديدة ، وفُرض على جميع المواطنين البالغين حتى الخامسة والاربعين حضور هذه الدروس . وفي سنة ١٩٢٥ جاء تجديد قوانين الاحوال الشخصية ليحرر المرأة من جميع القيود القانونية والاجتماعية . فينبأ يفرض الاسلام على الرجل وحده إعالة زوجته وأولاده وسد حاجات منزله ، جاء تبني قانون الاحوال الشخصية السويسري « وبشكل خاص قانون مقاطعة نوشاتيل » يجبر المرأة التركية على مشاركة زوجها في سد حاجات المنزل : « يفرض على الزوجين المساهمة في ازدهار المنزل وفي إعالة وتربية الاولاد » - المادة ١٦٧ من القانون المدني السويسري والمادة ١٥٨ من القانون التركي . -
فهذا السبب نرى في تركيا اليوم آلاف النساء من موظفات وكاتبات ومدرسات وطبيبات ومحاميات وقاضيات ... كما يزداد عدد النساء العاملات في المستشفيات والمختبرات والمصانع والجامعات باطراد ملموس .

وقد دهش الرجال الاتراك من السرعة العجيبة التي انتقلت فيها المرأة من حياتها التقليدية الدفينة الى الحياة الاجتماعية . فقد منحت شيئاً فشيئاً حق الانتخاب السليبي والايجابي في جميع الهيئات المنظمة ابتداء من الجمعيات الاقليمية . وفي سنة ١٩٣٤ قبلن بعدد محدود في الجمعية الوطنية التركية . وفي سنة ١٩٣٥ ملأن ١٧ مقعداً أي بعدد يفوق عددهن اليوم . وارتفع هكذا

بسرعة عجيبة عدد النساء اللواتي يكسبن عيشهن بأنفسهن فأُست
على الاثر المنظمات النسائية استجابة للمصالح النسائية الجديدة .
وفي نيسان سنة ١٩٣٥ عقد اول مؤتمر للاتحاد النسائي العالمي في
اسطنبول تقديراً لتقدم تركيا في ميدان حقوق المرأة .

ولم يعلن التدريب العسكري اجبارياً للنساء وان كان هذا
الموضوع قد أثير لفترة معينة . غير ان القانون يعلن انه في
الحالات الاضطرارية يمكن استخدام النساء اللواتي يتراوح عمرهن
بين السادسة عشرة والخامسة والستين في خدمات الدفاع المدني
والنقلات وفي صنع الأدوات الحربية والطبية .

وها نحن اليوم نرى مسلمي تركيا يحيون حياة غربية محضة
فهم يرتدون البذلات الافرنجية ويستعملون البرنيطة عوض
الطربوش ويسكنون المنازل الحديثة ويتعاطون الرياضة ويعملون
بجد دونما حاجة الى تلك المشاحنات الفارغة . والشئ الذي يصعب
تصديقه اكثر من هذا كله هو منظر اولئك النساء الانقيات
المتحررات يفدون ذهاباً وإياباً الى الاسواق ينتقلن ويشترين
وكأنهن اوروبيات خالصات . فالنساء حتى في الاماكن الجبلية
التي لم تطلها الاصلاحات بشكل عميق ، لا يتجرأن على الظهور
متقنعات . ان كمال أتاتورك قد حرر نساء بلاده وتغلب على كثير
من معتقدات شعبه .

لقد نجح مصطفى كمال في تحويل تلك الدولة الملكية الطائفية
التقليدية الى دولة علمانية جمهورية مستعملاً القوة لا الاقناع .
فهذا السبب لم تجار عقلية الشعب التركي في تطويرها مظاهر

التقدم الخارجي . فالوضع في تركيا شبيه بالوضع في اليابان حيث
يظهر الشعب متمدناً أو حتى متأمر كماً غير أنه يحفظ في قرارة
نفسه تعلقه بتقاليد القومية ومعتقداته القديمة . فالياباني يتخلى
بسهولة عند عودته الى بلاده عن بذلته الافرنجية ليتردي الكيمونو
الياباني . والواقع ان الفرق الاساسي بين مختلف الشعوب التي
تسكن تركيا يجعل من المساواة والتوحيد في القوانين والعادات
شيئاً ظاهرياً . وطبيعي أن نلاحظ تلك الفوارق عند النساء
أكثر منها عند غيرهن نظراً لملهن الشديد الى المحافظة .

فالساسة الاجتماعية وبرامج التكنيك الحديث لم تصب هدفها
بين سكان الجبال كالأكراد في الجبال الشمالية الشرقية او سكان
كليسيا وجبال طوروس ، او الاقلية الشرقية في تركيا
الاوربية ، اذ ان الامبراطورية الاسلامية أبقت على بعض
خصائص هذه الشعوب أسوةً بسائر البلدان الاسلامية .

ففي حفلات مراسيم الزواج والاعياد تبرز بوضوح خصائص
سكان القرى النائية عن المدن . وهذا الشكل الضئيل من
الفولكلور يسبغ لوناً زاهياً على الرتابة التركية . غير ان
رواسب المظاهر الشرقية فيه غير كافية لظهار مفاتيح آسيا وإثارة
اهتمام السياح ، بينما ما تزال المظاهر الغربية ضئيلة لا تمكن الغربي
من الشعور بأن شيئاً ما لم يتبدل بالنسبة له . فوضع الانتقال
هذا بين الشكل والجوهر ، بين العام والخاص ، بين التقدم المادي
والتقليدية الروحية ، يجعل وجه تركيا مشوهاً وعلاماته الفارقة
مائعة مفقودة .

فهناك بعض النساء اللواتي يظهرن متحررات واعيات ولسن كذلك في بيوتهن او في حياتهن الخاصة . وهنالك رجال يُفرض فيهم وفقاً للقوانين الثورية التي نصها واحد منهم وارتضوها جميعهم ، لا ان يعترفوا بمساواة المرأة لهم في القوانين والحياة العامة فحسب ، بل أن يعاملوها وفقاً لروح النصوص الجمهورية الموجودة . وهم في الواقع لا يطبقون شيئاً من هذه النصوص . فهناك في واقع تركيا امرأتان اثنتان : تلك التي تخرج مع خطيبها الذي اختارته هي بملء حريتها ، والتي تمارس الرياضة البدنية علناً وتلعب التنس وتشارك في مسابقات السباحة والرياضة على الملاعب الجامعية الجليلة ، والتي تتبرج على الطريقة الفرنسية وتشارك في الاحاديث السياسية والصحفية . وهنالك المرأة التي تتجنب الاشتراك في اي نقاش يخص الرجال والتي تجلس الى المائدة بصمت على أهبة دائمة لتنفيذ اوامر زوجها ، والتي عليها ألا تظهر مشاكلها العاطفية إن كانت تعاني من تلك المشاكل إذ أن امر زوجها يتدبره أهلها دون استشارتها ، وأخيراً تلك التي لم تخف وطأة جهلها مطلقاً منذ اعلنت الثورة لأث الرجال لم يجدوا في ذلك نفعاً لهم .

واذا كنّ جميعهن يملكن حق الانتخاب فأنهن يمارسنه بآلية وفقاً لرغائب أزواجهن دونما أية روحية سياسية أو مدنية . والظاهر ان المشكلة ترجع يجذورها الى خصائص كل محيط اجتماعي . وانه لطبعي ايضا من ناحية ثانية ألا تمتحى آثار أجيال طويلة بمدة لا تتجاوز خمساً وثلاثين سنة . وآثار تلك التقاليد ما

تزال بارزة حتى في الجامعات . فالعديد من الشباب يهزأون من الفتيات اللواتي غزوين حقولاً كانت قديماً مخصصة للرجال . والبعض يذهب في اعتقاده الى حد القول بأنهن قد خرغن التقاليد الدينية المقدسة أو يعتبرهن خارجات على أنفسهن يحملنها فوق طاقاتها . غير ان هذا لم يقف حجر عثرة في وجه خالده أديب أديغار التي سأتكلم عنها فيما بعد ، إذ شغلت منصب وزير التربية من سنة ١٩٥٠ الى سنة ١٩٥٤ ووضعت مؤلفات عديدة عن حرب الاستقلال وناضلت الى جنب أتاتورك ودرست الانكليزية في جامعة استانبول .

وهناك أيضاً بعض الحالات القليلة الحدوث طبعاً دفعت فيها بعض الفتيات حياتهن ثمناً لحبهن . والمرأة التركية لا تربي لها صداقات بين الرجال وذلك حتى في القسطنطينية ذات الطابع الكوسموبوليتي . فالثورة لم تحول كلياً وضع المرأة ، فكثيرات من النساء لا يأبهن لما هو خارج على التقاليد ولا يطمحن بأي شكل للحياة المتحررة التي يحولهن القانون حق ممارستها . وتذهب الحال ببعضهن الى حد التأسف على عهد تعدد الزوجات إذ أنه كان يوفر للمرأة شريكة أو شريكات في عملها اليومي ويؤمن لها حرية أكثر داخل حرمها حيث ما كان لرجل أن يتجراً على دخوله « إذ انه من الانصاف القول بأن المسلمين الذين يتبعون الوصايا القرآنية يعاملون زوجاتهم معاملة عادلة ويحترمونهن كثيراً كما انهم لا يتدخلون نهائياً في خصائص حياة نساكنهم مطلقاً » . غير أن النساء النائبات في مجلس أنقرة ، والمناضلات من

المنتسبات إلى الحزب الديمقراطي وأساتذة الجامعات وبطلات الرياضة « كصيحة كوكسي المظلية الشهيرة » ومجموعة النساء المثقات اللواتي يمثلن تركيا بكل جدارة في المؤتمرات العالمية ويثبتن أن هنالك نسوة عرفن كيف يستفدن إلى حد بعيد من جميع الإصلاحات الاجتماعية التي وضعت من أجلهن... إن جميع هؤلاء قمن بواجبهن خير قيام . والمثال الأكثر وضوحاً في ذلك هو مثال نازلي طالبيار المرأة التي ولدت في ظل النظام القديم وتلقت دروسها في معهد استنبول الأمريكي . هي صحفية اتمت في أولى سنين الثورة إلى الحزب الديمقراطي الذي خلف الحزب الجمهوري القديم في إدارة شؤون البلاد .

وفي سنة ١٩٥٠ وفي سن السابعة والثلاثين انتخبت نازلي طالبيار نائبة عن اسطنبول في الجمعية الوطنية . ومقدرة هذه المرأة السياسية وثقافتها الواسعة ساعدتها في أن تنتخب على التوالي عضواً في هيئة إدارة الجمعية الوطنية وعضواً في لجنة الشؤون الخارجية كما أسندت إليها مكرتارية الهيئة البرلمانية الانكليزية - التركية . كما رفعتها شعبيتها إلى مركز رئيسة جمعية النساء التركيات وإلى عضوية اللجنة التنفيذية التركية لمؤسسة الشباب العالمية ، وأخيراً أوفدت سنتين إلى ستراسبورغ عضوة في الجمعية الاستشارية للمجلس الأوروبي .

فنازلي هي البرهان الحي الواضح على أن كمال أتاتورك قد نجح في تغيير أشياء كثيرة . والمرأة التركية بتغييرها لأوضاعها أبدلت ترتيب بيتها وتنظيمه .

وقد استعاض عن بدخ وزخرف الاواني الشرقية كالسجاد والستائر الدمشقية والحرائر والأرائك والأواني النحاسية بمفروشات أسهل استعمالاً وأقل زخرفاً . فالمفروشات والاواني المنزلية الحديثة قد دخلت في حياة المرأة التركية . غير أن تجهيزات البيوت التركية غالباً ما تخلو من الوضوح تاركة مجالاً للتساؤل في سلامة ذوق ربّات المنازل . فالمرأة والمنزل في تركيا متآلفان إلى حد أن المنزل التركي يبرز وجهاً جديداً من وجوه تركيا الجديدة .

وفي سنوات ثورية قليلة أعاد كمال أتاتورك الحرية للعبيد إذ أن تركيا الباب العالي كانت لفترة غير وجيزة بعد حرب ١٩١٨ ما تزال تتعاطى تجارة الرقيق على صورة واسعة النطاق جداً . فالرق كما كان متبعاً من قبل الباب العالي قبل الثورة كان مناقضاً تماماً للشرائع الاسلامية إذ ان هذه لا تسمح إلا باسترقاق غير المسلمين الذين يقعون أسرى في حروب الجهاد . غير ان أكثر العبيد في تركيا كانوا من الشركس المسلمين .

وكان الباب العالي لعشر سنين قبل الثورة قد حظر تجارة العبيد في القسطنطينية إرضاء للرأي العام الاوروبي . غير أن الرق كان ضرورياً للحفاظ على الدولة العثمانية . لهذا السبب كانت نتائج حظر الرقيق رسمياً جد مؤلمة . فلكون الحاجة إلى الرقيق باقية على ما هي عليه كان التجار يضطرون إلى اللجوء إلى شتى وسائل تهريب فينقلون آلاف الاطفال والنساء في مراكب بدائية وفي فصل الشتاء خاصة عبر هياج البحر الاسود . وغني عن البيان ان

العديد من تلك المراكب كانت 'تفقد خلال تلك الرحلات .
فالحسائر في الارواح البشرية كانت فادحة والنسبة المئوية للناجين
في تلك العمليات كانت ضئيلة جداً . ونتيجة ذلك الحتمية ان
عدداً أكبر من البشر كانوا يحولون الى رقيق .

وعند وصول العبيد كان يتقاسمهم التجار لبيعهم في القصر
الامبراطوري او لأشخاص أثرياء . فعدد النسوة الرقيقات في
منزل السلطان وحده كان يبلغ الآلاف ...

وكان لا بد لهذا العدد الضخم من النساء من نظام صارم
وترتيب دقيق لا مجال فيهما للصدفة ، فما كانت الفوضى لتلقى
محللاًها في هذا المكان . وكانت السلطة المطلقة في هذا الحرم بيد
السلطانة الأم والدة السلطان الحاكم . وكانت تليها في الترتيب
أم ولي العهد المدعوة باش خدين افندي ، تليها ثاني وثالث ورابع
باش خدين افندي . ثم تأتي بعد ذلك الهانمات افندي والدات
أصغر اولاد السلطان . ثم السلطانات فتيات « البادي شاه » غير
المتزوجات ، ثم خليلات السلطان المدعوات « إقبال » وفي النهاية
تأتي « الكنوده » او التي شملتها رعاية السلطان . وكان لكل
من اولئك النسوة مرتبها الشهري ومسكن خاص بها وعبيد
وخصيان في خدمتها .

اما حاشية الملكة الأم فكانت مؤلفة من اثنتي عشرة امرأة
لكل منهن مهمة خاصة : صاحبة المالية ، والسكرتيرة ، وحاملة
الحتم ، وحافظة الثياب ، والمشرقة على أواني القهوة الخ... كما
كان يلحق بكل من تلك النسوة معاونة وعدد من الإماء

يدرّبن على خصائص المهنة .

وكانت الرقيقات تصبجن ، وفقاً لدرجة ذكائهن ، طاهيات
او غاسلات او وصيفات ! والتي كانت قبدي استعداداً فنياً
كانت تتعلم الرقص والغناء والضرب على بعض آلات الطرب
الشرقية . كما كنّ يلقن أيضاً فن اللبابة الشرقية ويُعطين بعض
الدروس الدينية . والتي كان يفرض فيها ان تصبح سكرتيرة
كانت تتعلم القراءة والكتابة . وكانت المحلات الشاغرة تملأ
بسرعة نظراً لكثرة عدد الارقاء . والنساء والرجال والاطفال
الذين يُسلخون عن عائلاتهم ليصبحوا عبيداً ، كانوا يسمون إلى
« مكلفة » لتربيتهم وترواعهم . وكثيراً ما كانت تسهر تلك
المرقيات على العبيد سهر الامهات فيتولد من جراء ذلك بينهم
حب أبوي متبادل . وأما « المكلفة » فكانت من النساء اللواتي
لم يلقين عطفاً عند السلطان فما كنّ ليبلغن مركزهن لولا قدمهن .
وكنّ مكلفات بشراء وتربية العبيد والإماء لسيدهن ، وبتربيتهم
على ذوقه ومزاجه ..

وكان الحرم في تركيا بحاجة إلى نسوة رقيقات إذا ما كان
يحق للمؤمنات بأن يظهرن صافرات امام الرجال ، كما كان في
تركيا ايضاً قوانين عديدة تحمي الرقيق وتدافع عنه .

وعندما حظرت سوق الرقيق كانت سيدات الطبقة العالية
يحدثن تضحكاً في عدد تجار الرقيق السريين . فكان عند وصول
كل دفعة جديدة من الارقاء ينزلن إلى الاسواق ويشترين
الاولاد البالغين السادسة او العاشرة من سنهم بمبالغ كن ينتظرن

تضاعفها مراراً بعد ان يشب العبيد .

كانت هذه التجارة المثمرة تؤمن لزوجات كبار الموظفين دخلاً شخصياً كبيراً . كما كان هؤلاء السيدات يربين وصيفات جميلات كان الرجال الاتراك يختارون من بينهن زوجات لهم . إذ ان الصبية الرقيقة التي تتقن العادات الطيبة ومعرفة المراسيم العثمانية كانت أرخص ثمناً من مثيلتها الحرة لأن الزواج من هذه الأخيرة كان يفرض تقديم الكثير من الهدايا الثمينة وتعيين الكثير من الولاة الضخمة . فكثير من الآباء الذين لم يكن بمقدورهم ان يقوموا بتكاليف خطبة وزواج أبنائهم من حرات ، كانوا يشترون لهم صبية رقيقة من عند سيدات المجتمع العالي . ومن نتائج هذه الطريقة ان تلك الصبية المشتراة والتي هي بدون أهل ولا أقارب ولا سند قانوني ولا أي مركز اجتماعي ، كانت تصبح طيعة فائعة هما الوحيد لإرضاء زوجها او بالأحرى سيدها ، متخفية في سبيل ذلك عن كل حاجاتها ورغائبها .

وفي حال إنجاب الرقيقة أطفالاً كان يحظر على سيدها بيعها . فهي قد اكتسبت بالولادة حق البقاء في بيتها وقريبة طفلها . كما انها تصبح فوراً حرة في حال وفاة زوجها . وغالباً ما كان ابو الولد يجرر ام الولد ويتزوجها شرعياً . فكانت بذلك تصبح ذات مركز اجتماعي وذات حقوق وميزات كسائر الامهات العثمانيات . أما معاملة الرقيق فقل ما كانت سيئة اذ ان سنة الرسول أدخلت على قوانين الرقيق القديمة أسباب الرحمة ففرضت ان يغذى العبد كسيده وان يعامل معاملة حسنة . اما حلم

الرقبات فكان في ان يصبحن « هائغات » وكان هن في ذلك حظ كبير إن كن جميلات . وللرقبات حق المطالبة بحريتهن بعد مضي سبع سنوات على عبوديتهن وغالباً ما كن ينلن مع مهر وزوج . وإعتاق العبد فعل خير بالنسبة للمسلم ، وهو كفارة عن كثير من الذنوب ، لذلك كان كثير من المسلمين يعتقدون عبيدهم عند مماتهم .

وتروى في هذا المجال قصة مسلمة تتعلق بزوجة وزير معروف يدعى فؤاد باشا . كانت تلك السيدة ، بهيجة هانم ، تطمح في ان تؤمن لنفسها دخلاً مستقلاً عن دخل زوجها فانصرفت لتجارة الرقيق ونجحت فيها . غير ان مخازنها ازدحمت يوماً بالإماء فخشيت السيدة ألا تستطيع تصريف جميع تلك « البضائع » فلجأت إلى شيخ عجوز اشتهر بحفكته ومقدرته السحرية . فوعد العجوز السيدة خيراً بعد أن تسلم منها مبلغاً محترماً من المال . فأرسل لها بعد مدة من الزمن « قميصاً سحرياً » يجعل ، حسب قول العجوز ، كل امرأة ترتديه رائعة الجمال . وبالفعل فقد باعت زوجة الوزير جميع الفتيات اللواتي في حوزتها لايمانها بمقدرة القميص السحرية ! والأرجح انها تمكنت من بيعهن لأنهن كن جميلات .

*

وقد عرفت تركيا العثمانية ايضاً نساء اشتهرن بثقافتهن وحكمتن وحياتن المثالية مع كونها جميعاً تتناقض وما كان يفرض في المرأة العثمانية .
ففي القرن الخامس عشر أثارت زينب الشهيرة ابنة قاضي

آماسيا إعجاب الحاشية والمجتمع العثمانيين بقصائدها الرائعة . وكان والدها قد درّسها الشعراء الفرس والعرب فكتبت هي بالفارسية والتركية أفاديص الحروب ملهبة الحماس العسكري والشعور الوطني بتغنيها بالابطال القوميين . وقد ترجمت بعض مؤلفاتها الى الانكليزية .

وهناك امرأة ثانية عرفت باسم « مهري » اشتهرت ايضاً بقصائدها الغرامية مع انها ظلت عذراء رغم العديد من طلبات الزواج التي قدمت لها من قبل ابرز وجالات عهدها لأنها كانت تحب ، وبالألف ، بدون أمل شاباً ايطالياً اهتدى الى الاسلام ويدعى اسكندر شلي ابن سنان باشا . وهي تسبته في العديد من قصائدها . وقد ترك معاصروها عنها صورة لأمرأة صبية جميلة وذكية تعسة في حبها ، عفيفة طاهرة في سيرتها .

اما مصير هياتيلاسلطانا شقيقة السلطان محمد الثاني ، فكان أنعس ما خبّاه الحظ لشاعرة عثمانية . كانت هذه المرأة تملك كل شيء : الجمال والذكاء والشاعرية والمركز الاجتماعي الكبير ، غير انها في خلال الثورة التي رفعت أخاها الى العرش وأودت بحياة مصطفى الرابع انتهت عن حق بالتآمر مع أخيها فألقي بها في السجن . فاستسلمت للباس إذ انصرف عنها جميع اصدقائها فجزعت السم وكانت ما تزال صبية . والقصيدة التي كتبتها وهي تنتظر الموت تنمّ عن عمق أساهها كما تظهر وباطة جأشها أمام حتمية القدر او ما أممته « بالقصة » .

وهناك صبية اخرى خلّد ذكرها نظراً لما خلقت من شعر

وقيق . وكان اسمها « صدقي » وهي ابنة أحد علماء القانون في القسطنطينية واسمه قاهر محمد . وتوفيت هذه الشاعرة في سنة ١٧٠٣ ودفنت الى جنب والدها بالقرب من دير أمير بخاري ، قريباً من أدرينا نوبل .

وفي بعض قصائد عزّت ملّا ذكر « فتنة هانم » التي عاشت في حوالي سنة ١٨٠٠ وهي ابنة مفتي « آساد » ، كانت متزوجة من رجل غبي تافه لا يستحقها على حد قول عزّت ملّا . وأما أشعارها فعذبة فيها وصف لجمال الطبيعة والازهار والاشجار والحقول والعصافير والينابيع والسهاء . وقد ترجم بعضا الى الانكليزية .

وقد أصابت قسطاً من الشهرة ايضاً شقيقة عزّت ملّا عمة فؤاد باشا . وقد توفيت ليلي هانم ، وهذا اسمها ، في السنة ١٨٥٨ وترجمت مؤلفاتها في سنة ١٩٤٢ ونشرت في بعض المجلات النمسية .

وأخيراً وبالعصر الحديث هذا ، اشتهرت خالده أديب أديغار التي نالت الجائزة الاولى في القصة التركية على مؤلف كتبه بالانكليزية وترجم فيما بعد الى التركية والفرنسية . وقد ظهر بالفرنسية تحت عنوان « شارع السمانة والذباب » وفيه وصف رائع لأنظمة العهد البائد .

المرأة المسلمة البلقانية

ان الاهتمام الذي تثيره النساء المسلمات في يوغوسلافيا والباليا يرجع الى ان المجتمعات الاسلامية البلقانية المؤلفة من مليونين ونيّف هي المثال الوحيد لثبات الاسلام في أوروبا. كما أن أهمية هذا الحدث السياسية كبيرة أيضاً. فاذا كنا قد رأينا بدهشة الظروف التي انتهت اليها أوضاع المرأة المسلمة في بلد ذي دستور علماني كتركيا، فاننا سنلاحظ أن ذروة التطور عند المرأة المسلمة اللفية للسنن الدينية هو ذاك الذي انتهت اليه في بلاد البلقان. فنحن نلقى هنا أبعد ما يمكن أن تطمح اليه امرأة من التساوي مع الرجل ومن مشاركتها له في الحياة الاجتماعية والمدنية من غير أن تتخلى عن واجباتها الدينية.

غير ان مسلمات آسيا السوفياتية قد ذهبن أبعد من ذلك ولكنهن، وهذا ما سنراه، قد تخلين حتماً عن سنة الرسول وعزلن بملء إرادتهن عن الاسلام.

إن عالم الاسلام البلقاني الجميل المدهش قد تبين لي للمرة الاولى يوم كنت أقوم في سنة ١٩٥٤ برحلة على أثر ماركو بولو، قادماً من شواطئ «دلاط» قاطعاً الوديان الطويلة والجبال الشاهقة في بلاد المونتنگرو والهرزكوفين والبشناق ومكدونيا، ففي كنجيك وموستار تبيّنت شيئاً فشيئاً كم كنا مخطئين، أنا والعديد من الاوروبيين، في ما كنا نتصوره عن مسلمي يوغوسلافيا.

فوصول الشيوعيين الى الحكم وسياسة المخططات التي تلت ذلك في جميع نواحي الحياة القومية، جعلتني أعتقد أن شيئاً ما كالبرنيطة التركية أو كالأخذية الروسية، قد غطت معالم التقليد والفولكلور في يوغوسلافيا أيضاً، مذبذبة كل معالم الفردية. والحقيقة اني رأيت في حقول القمح والشعير تحت شجر التفاح وعلى ظهور الحمير وعلى طول الطرقات الموحلة حيث كادت تغرق دواليب عربتي، صبايا ونساءً مسلمات يحين حرات سعيّدات لابسات ثيابهن التقليدية، تلك التي يلبسها كل يوم. وكانت أسلافهن يلبسها قبلهن. ومنها تلك القبعة المطرزة الكبيرة، وتلك القساطين الطويلة المزركشة بالحرير والفرو والدنتيل. وأما الحجاب فلم أراه، إذ أن النصوص الاشتراكية قد حظرتة. وهذا هو الحظر الوحيد من نوعه الذين فرضه النظام الجديد على المسلمين فيما يتعلق بحياتهم الخاصة.

فتحضير المجتمعات في يوغوسلافيا لم ينزع، كما قد يخشى، معالم الماضي. ففي وسط السطوح الحمراء والشرفات الحشوية ترتفع في كل قرية المآذن البيضاء، ومنها يدعو المؤذن، كما في كل البلاد الاسلامية، المؤمنين الى الصلاة. ففي بيوت الشعب هذه حيث النجوم الحمراء على المداخل، يسجد المسلمون اليوغوسلافيون متوجهين شطر القبلة، نحو الكعبة المقدسة. وتطبق الإصلاح الزراعي وفقاً للنظرية الجماعية الماركسية لم يستثن أحدٌ من فلاحي جمهوريات يوغوسلافيا المتحدة ومن بينها الجمهوريات الثلاث ذات الاكثية المسلمة. غير أن التطبيق التيتوي الذي صعب الجماعة

الكوالموزية صبغة خاصة بواسطة تعاونيات جمهورية ، قد لاقى استحساناً عند المسلمين الذين أقبلوا جميعاً على تنفيذه .

والمساواة الاجتماعية التي دعا إليها القرآن والتي تنكر كل تفرقة وتميز بين المؤمنين ، قد ساعدت كثيراً على تنفيذ مخططات الدولة إذ لاقت الملكية الجماعية لوسائل الانتاج والارباح الزراعية نتائج جيدة . فالتدخلات الخارجية في التعاونيات الزراعية حيث تعمل النساء جنباً الى جنب مع الرجال بمساواة وتقام كليتين ، قد ألغيت في الواقع إذ أن أعضاء تلك التعاونيات يشكلون حلقات إنتاجية تامة تكتفي بذاتها وتنشئ من فيض إنتاجها مؤسسات عامة من مدارس ومستشفيات يحتاجها المجتمع . وفي هذه التعاونيات تجدر الملاحظة بأن التعاليم القرآنية والتطور الاجتماعي يسيران جنباً الى جنب . وهذا مثال فحله أكثر الدول الإسلامية التي هي أكثر حاجة من يوغوسلافيا لتطوير جماهيرها .

فسراجيفو ، تلك المدينة الكبيرة التي يمكن اعتبارها عاصمة المسلمين في البلقان ، أعطتني البرهان بأن المسلمين اليوغوسلافين مع قبولهم بالاشتراكية لم يتخلوا ولا بشكل عن إيمانهم ومعتقداتهم الدينية . وإن كان المسلمون في يوغوسلافيا كسائر المواطنين والمواطنات البالغين الواحدة والعشرين من العمر يتقدمون الى الانتخابات السياسية ويحسون عدداً لا يستهان به من النواب في المجالس القطرية والفدرالية ، فإن حياتهم الروحية مؤمنة بواسطة مجلس أعلى مقيم في سراجيفو يدعى « فاكوف » . وينتخب أعضاؤه انتخاباً عاماً ويفرض أن يكون ثلثهم من

بين العلماء .

وكما هي الحال في جميع البلاد الإسلامية ، نرى أن العلماء في يوغوسلافيا يتولون مهمة الدفاع عن الدين وحماية الروح الإسلامية . فعلماء سراجيفو يساعدون المجلس الأعلى في مهامه التشريعية ويعينون رؤساء الأديان أو المفتي في مختلف أنحاء الجمهوريات الإسلامية الثلاث كما يعينون أيضاً أعضاء الجسم التعليمي المكلفين بتدريس القرآن في مختلف مدارس الداخل .

فهنا عند تنقلي في سراجيفو النصف شرقية والنصف جرمانية ، استطعت أن أبين نقطة الالتقاء الحقيقية بين العالمين الاوروبي والمسلم . فالفاصل بين هذين العالمين ساقية : فمن جهة تلقى الشوارع الضخمة المحاطة بالأبنية الجميلة حيث تجري التراموايات والعربات وفي الجهة الثانية تلقى بيوتاً صغيرة بيضاء متدلية كالعنقود حول المساجد وقصور الباشوات العثمانيين القدامى . كما تلقى في الطرقات الضيقة دكاكين أصحاب الحرف ذوي القبعات التركية الذين ما يزالون حتى اليوم يصنعون المصاغ النحاسي أو الفضي أو الجلدي وأواني القهوة التركية والشاي العربي ويبيعون القطع الخشبية الجميلة التي زرکشها مسلمو هر كوزوفين . وفي كل المدينة تتجاوز المآذن والأجراس تحيط بها الجبال الشاخنة .

ففي تلك العاصمة الشرقية والغربية معاً تحيا المرأة البلقانية المسلمة حياة حرة طليقة تعطيها أفضلية اجتماعية وثقافية تقاس بأجيال بالنسبة لمثيلاتها في افريقيا وآسيا . فليست الأمية وحدها التي زالت من بين الجماهير المسلمة إذ أن الفتيات يذهبن إلى المدارس

كالشبان ويتابعن دروسهن حتى بالجامعات ، بل هنالك جديد لا
مثيل له في سائر البلدان الاسلامية الاخرى ، وذلك أن باستطاعة
المسلمين مع بقائهم أوفياء للسنة القرآنية أن يتعاطوا الرسم والنحت
والتمثيل دونما أن يخطئوا كما كان يسود الاعتقاد سابقاً . وقد
انتخبت النساء المسلمات بفضل لجوئهن إلى حرية التعليم والعمل وما
حصلن عليه من حق الاقتراع والتوظيف ، إحداهن نائبة في
الجمعية الوطنية .

وكانت تلك المرأة المدعوة « سنجيا بيلافدزيك » عاملة في
أحد مصانع الكلسات حيث اشتغلت مدة عشرين سنة بحبرة
وثبات استحققت بموجبهما في سنة ١٩٥٠ وسام العمل . وعندما
انتخبت نائبة في المجلس لم ترَ ضرورياً تخليها عن عملها الذي نالت
فيه كل شهرتها فتابعته عملها في سراجيفو ولم تذهب الى بلغراد إلا
في الدورات البرلمانية . والسكرتيرة المالية لهيئة مدينة سراجيفو
الشعبية ، هي مسلمة أيضاً .

وبين الفتيات اللواتي ألفن الجامعات ومارسن مهناً حرة
كالتعليم والهندسة ، واحدة اسمها نديدا هوزيك عينت قاضية في
البداية مع العلم أن مثيلاتها في بعض البلدان الاسلامية لا يحق لها
المثول حتى كشاهدات أمام المحاكم .

فمشاركة المرأة اليوغوسلافية المسلمة في الحياة العامة كانت
نتيجة مكاسب ورجتها المرأة مباشرة في خلال الاحداث الخطيرة
التي مرت بها الدولة . فقبل أن تسفر نساء مصر عن وجوههن
بأربعة عشر عاماً ويطلبن من الحكومة السماح لهن بالتطوع وحمل

السلاح لطرد الاجنبي من أرض الوطن في سنة ١٩٥٤ ، كانت
النساء اليوغوسلافيات المسلمات قد فعلن ذلك . فعظيم أفعال
أولئك المقاتلات سطر أنصع صفحة في تاريخ الاسلام الحديث .
ولكن لكونهن أوروبيات فالشرق يدير لهن ظهره حتى وإن
كن مسلمات ، عوضاً أن ينظر لهن نظرة إعجاب وتقدير . غير
أن ذاك الوعي السياسي وروح الاندفاع تلك ، يثيران العجب
إذا ما علمنا أنه يوم الاحداث في سنة ١٩٤٠ لم يكن أي نظام
سياسي قد حررهن أو غير سنن حياتهن . فالثورة التركية لم
تقلل إليهن أية ربح ثورية يمكنها أن تقلب أوضاعهن الاجتماعية .
وعندما ظهرت المدرعات الألمانية والظليانية في بداية الحرب
ونشرت الدمار كانت النساء المسلمات البلقانيات يعشن في قراهن
في ظروف مماثلة لتلك التي كانت فيها المرأة الآسيوية خاضعة
بسلبية خالصة لتقاليدها .

غير أن ردة الفعل كانت سريعة ومجدية إذ أنه في سنوات
قليلات عثرت المسلمات البلقانيات في تعاليمهن الدينية ، لا على
عذر للانعدام الخلفي ، بل على العكس من ذلك عثرن على دافع
للجهاد في سبيل تخليص الوطن ، فذهبن إلى جبهات الحرب بعزم
الأبطال وشجاعتهم . فكانت نتائج ذاك الحدث الجديد أن
تطورت المرأة تطوراً سريعاً عجزت عن أدائه في صفوف مسلمات
آسيا ثورة تركيا ، وما يزال بعيداً عن أدائه ذكاء أبو رقية
وزعماء حزب الاستقلال التونسي في شمال افريقيا . ومن بين
جميع المسلمات اليوغوسلافيات المجاهدات صبية من الهرسك يجدر

بنا نقل قصتها كاملة . فالبطلة « سيدا كفارا » إحدى مواطنات الجمهورية اليوم قد اختطت حياة جديدة للفتيات ضمن التعاليم الإسلامية . كانت « سيدا » كالكثيرات من بنات جنسها تشعر منذ طفولتها بأن تربيته البدائية ما كانت لتسد حاجاتها الفكرية ، وإن تلك الحياة في عائلة أعمتها التقاليد وأذلها الفقر بين أربع جدران قدرة في مزرعة جبلية ، لم تكن الحياة التي يجب أن تطمح إليها . واستطاعت أن تحصل على بعض الكتب المدرسية السرية وإن تأخذ من أصدقاء لها كانوا يذهبون إلى مدرسة المدينة صحفاً وكتب تاريخ ومغامرات . وإذا أعجبتها سيرة الأبطال السرب ، فكرت وهي في الثانية عشرة من عمرها ، بأنها قد تغادر عائلتها وقريتها إذا كان في ذلك سبيل لتحررها .

ففي أحد الأيام ملأت عباب الفضاء أعمدة من الدخان وصراخ رعب منطلقان من أسفل الوادي . وكان الرجال والنساء يهربون صعداً نحو الجبال بينما كانت تتقدم نحو حقول مواطني « سيدا » آلات حرب عجيبة . كان عمرها حينئذ ستة عشر عاماً ، وشعرت بأن واجبها كمؤمنة ، هو أن تقاتل تلك الأشباح الفولاذية التي تزرع الموت حولها . ولكن ما العمل ؟ فهي لا تملك حتى خنجرأ ، وأبناء قومها لا يصغون إليها لأنها امرأة ، والنسوة كن يسكتنها لأنها فتية .

وكانت الأخبار السيئة تتدفق من كل مكان : فقد احتل الطليان والألمان جميع الوديان والمدن في البشناق والمهرسك . وكان الشعب الصغير المسلم في تلك الجبال قد أحيط من كل

الجبهات واضطهد وحلت به جميع الولايات : من الجانب المحتلين نازيين وفاشيست ، إلى المرتقة من السرب والكروات . ففي صبيحة يوم رأت « سيدا » بعض الجنود الألمان والطليان يهدمون بالقنابل اليدوية مئذنة مسجد قديم يحله جميع مؤمني الوادي . فقررت على أثر ذاك التحدي أن تعلن الحرب على أولئك المحرّبين . وقد لاقى حماسها استجاباً لدى شباب المنطقة المسلمين الذين كانوا يتحرقون لعمل شيء ما . فبفكر ثاقب قلّ ما يتناسب مع منها وتقاليدها بيئتها جمعت عندها رفاقها وأسست سرّاً أولى القوى الإسلامية المسلحة التي كان عليها أن تؤازر فيما بعد جيش التحرير التيتوي . وما كانت « سيدا » لتكتفي بوضع الخطط بل كانت تريد أن تعمل .

وفي خلال اجتماعاتها مع الشبان الأوسع ثقافة منها كانت تتعرف إلى فكر ومبادئ كانت تجهلها كسائر مواطناتها ، فبنت بذلك لنفسها شخصية فذة ووعياً سياسياً متيناً . وفهمت عندئذ أنه من واجبها القتال لا في سبيل حرب مقدمة بل لطرد العدو من أرض الوطن لكي تصبح مواطنة في أمة مستقلة وتقضي على المظالم الاجتماعية التقليدية التي أثارها في صباها . وكان شعبها ما يزال يقاسي العذاب أكثر فأكثر . ففي إحدى القرى هجم الجنود الفاشيست والنازيون على السكان جميعاً فصرعوا الرجال بخناجرهم ثم خلّوهم في مرارة النزاع أمام بيوتهم المحروقة ونسائهم المغتصابات . وفي أحد الأحياء أشعل العدو ناراً في الساحة العامة وألقى أكثر من ألفي رجل وامرأة وطفل في أتونها : الرجال مكتفين من

الحلف والاولاد مشدودين بحبال الى أحضان أمهاتهم .

فما كان بوسع الله أن يصبر أكثر من ذلك على استشهاد شعبه البريء ، فحملت « سيدا » الى جانب القرآن في خبايا ثيابها الفضفاضة قنابل يدوية معدة لصراع الاعداء . وتركت « سيدا » قريبها وقدمت نفسها الى قائد الفرقة التي كانت تحافظ على جبال بيوكوفو . فألهب عملها حماس العديد من الفتيات المسلمات اللواتي ذهبن بالتساوي مع الرجال لأول مرة إلى حمل السلاح تحت الثلج وفي الغابات لحدمة عقيدة واحدة . وقد أعجب قواد المنطقة بذلك « سيدا » وقوة أرائها فجعلوا منها في الشهور الاولى القلائل أخصائية من الطراز الاول ، ثم حصلت بعد ذلك على رتبة ضابط في جيش المشاة بعدما نجحت بتفوق في امتحان المراسلات العسكرية والراديو . لكنها عندما رأت في المنطقة التي كانت تعمل فيها فرقها ، دبابات لجيش التحرير كتلك التي كانت بحوزة العدو تزرع الدمار حيث ما حلت ، طلبت الانتفاء الى فرقة المدرعات . وخطر لقيادة الاركان ان تستفيد من نشاط « سيدا » وحيويتها في مهمة أدق من تلك التي كانت تشغلها في المخابرات فعيّنتها مخبراً سرياً لجيش المارشال تيتو الرابع وكانت عندئذ تبلغ الثامنة عشرة من العمر .

ان شتاء البشناق القارس بهوائه الجليدي وثلجه الذي يغمر كل شيء ببياضه ، يذكر بمناظر سكندينايا الغربية المدهشة . فالعربات المنسلة على الطرقات التي ضيّع معالمها الثلج هي دلالة الحياة الوحيدة في غابات تلك المنطقة . وكأني بكل ليلة من ليالي

الشتاء البلقاني انما حلت لتقطع أمل الجميع في رؤية النور ثانية . ولكن العدو الذي كان على المسلمين ان يقاتلوه في شتاء سنة ١٩٤٥ كان أكثر فتكاً من الظلام والجليد . فلوان المسلمين اخفقوا في مقاومتهم ذاك العدو في البشناق والمهرسك لما كان ليدهم نهاية .

وفي إحدى تلك الليالي من شهر شباط تركت « سيدا » معسكرها ملقفة بشال متكررة بزي بدوية فارسية متجهة نحو معسكر العدو . توجهت « سيدا » وهي تتلو بعض الآيات من سورة النصر . مع اثنتين من رفيقاتها مزودتين بآلات الراديو لتسهيل مهمتهن . وأقامت محطة للارسال في زاوية تحت سقف بيت إحدى صديقاتها في موستار على بعد بعض المئات من الامتار من مواقع العدو فبينما كانت ترسل الأخبار كانت رفيقاتها يقمن بالاتصال ببقية المواطنين المقاومات في المدينة متنسجات الاخبار عن تنقلات جيوش الالمان والطيان وعن عدد قواتهم وعن مراكز الأسرى . وقد حولت « سيدا » ورفيقاتها سراويلهن الفضفاضة الى مخازن متنقلة للسلاح فكن يتجولن في بيت يحتل جنود موسوليني وهتار باحاته ، حاملات القنابل اليدوية والمسدسات والذخيرة .

وفي أحد الايام ضرب مقاومو موستار « لسيدا » موعداً مع أحد الرفاق في قلب المدينة . فكان عليها بالرغم من انها لا تملك أوراق هوية ولا ورقة مرور أن تقطع مراكز المراقبة الامامية وان تتسلل من أمام القوة الفاشيستية المرابطة في الاحياء ، وأن

تصل الى المكان المعين حاملة سلاحها وجهاز الارسال . فنزلت « سيدا » نحو المدينة مخبئة وجهها في شالها منتعلة حذاء مهترئاً كسائر القرويات وهي تقود بغلاً محملاً حطباً . وفي المرات الثلاث التي أوقفت فيها استطاعت « سيدا » بما أظهرته من حماقة وبساطة أن تجعل الجنود يدعونها تتابع سيرها . وكانت قد حملت معها فوق الحشب كسرات من خبز الشعير الذي يأكله قرويو الهرسك . واذ رأت اعين أحد الجنود الألمان الذين كانوا يستفسرونها عن أوارقها ، تلعب لرؤية كسرات الخبز لم يطاوعها قلبها الرقيق إلا ان تعطي عدوها ما تملكه من خبز . والمعلوم أن جنود هتلر وموسوليني كانوا بدون طعام منذ أيام .

وعندما وصلت سيدا الى المكان المعين لم تجد أي رجل في انتظارها فحارت في أمرها ، غير أنها تابعت برباطة جأش أسطوانة سيرها متقلبة في شوارع قلب المدينة إلى ان حالها الحظ فالتقت بأحد المقاومين . وإذا أعلنت اسمها الشهير استطاعت ان تصل الى مركز الحزب الشيوعي السري في المدينة . وفي خلال ذلك كان الجيش الرابع والفرقة التي هي أحد أفرادها في طريق غزو المدينة من الجبال . فكان عليها اذن ان تدير العمليات العسكرية بواسطة جهاز الارسال الذي لديها .

وعندما ابتدأت معركة موستار تمكن النازيون والفاشيست من تشويش المخابرات التي كانت ترسلها . غير أن « سيدا » أدركت بحسن فطنتها ان الطريقة الوحيدة لمتابعة الارسال لجيش التحرير تكمن في تغيير أماكن الارسال بشكل مستمر . فتركت عندئذ

مركز الحزب وأخذت تنتقل من بيت الى بيت ومن شارع الى شارع متابعة هكذا اتصالها بقيادة الأركان . وتحت وطأة هجمات المقاومين اضطر الألمان الى الانسحاب من موستار . فطرح سيدا جهاز الارسال جانباً لتنزل هي بنفسها الى الشارع مع وشاشها . وافتتح أخيراً رفاقها القدامى المدينة فعادت هي لتأخذ محلها الى جنبهم . وأخذ جيش التحرير يتقدم نحو قلب البشناق محرراً المدن والوديان و « سيدا » في المقدمة ترفض ان تأخذ أي قسط من الراحة .

وفي ذات يوم عند مهاجمة حي بيهاك انقلبت السيارة التي كانت فيها « سيدا » فكسرت ساقها ويدها . فنقلت الى مستشفى عسكري حيث ضمت جراحها وجبرت ساقها . واهتز الجيش جميعاً لما أصاب البطلة فجاء جميع رفاقها في الفرقة المدوعة لزيارتها الواحد تلو الآخر . غير أن المهمات العسكرية اضطرت المقاومين الى متابعة سيرهم فذهبوا في ظهيرة يوم السفر يودعون « سيدا » .

وتأهبت المدرعات التي كانت مرابطة بالقرب من مستشفى « سيدا » للرحيل . فكان الفراق بالنسبة للفتاة أمراً لا يطاق ؛ وإذا كان الطبيب غائباً والمرضات في شغل عن « سيدا » يضمدون جراح المصابين الآخرين ، أجهدت « سيدا » نفسها لتقف على ساقها وتنزل الى الشارع في الوقت الذي كانت فيه آخر دبابه تهم بالرحيل . فرآها الجنود رفاقها فصرخت بهم : « لا أريد ان أبقى هنا احملوني معكم » . فرفعوها يهدوء ووضعوها في المصفحة .

وهكذا مضت « سيدا » أبعد فأبعد على طريق الحرية بصحبة مدرعاتها ورفاتها المحبين إليها . فالله القادر العادل حفظ ابنته اليوغوسلافية المسلمة الصغيرة الشريفة التي عملت في صباها أكثر مراراً مما يفعله أولئك المؤمنون المتسكعون على أعتاب المساجد فأبقاها حية ترزق .

ففي قصة هذه الصبية البلقانية المسلمة معاني عميقة بالنسبة لتطور الحياة النسائية في أوروبا الاسلامية حيث تركت التقاليد مجال تفتح الوعي الفردي وبواسطته مجال بعث الوعي الجماعي . نعم ان مثال « سيدا كفارا » مثال منفرد ، غير أن الشك لا يراودني مطلقاً في انه اذا ما جُرِّبَتْ ، لا سمح الله ، مغامرة هتاربة جديدة في البلقان سوف يحذو حذوها العديد من النساء المسلمات اذ انهن لسن اليوم نساء خدور كالأمس بل مواطنات في أمة ليس للرجال فيها أي حق شخصي او شرعي في التسلط عليهن .

المروءة في آسيا الاسلامية السوفياتية

هنالك جزء من العالم الاسلامي يحيا ضمن الحدود السوفياتية فالارض التي يسكنها العشرون مليون مسلم سوفياتي تشكل مجمل آسيا الوسطى وتمتد من القولكا الى الكراكورم ، ومن أذربيجان الى منغوليا . فكل هذه الارض ملك لروسيا منذ العهد القيصري ما عدا مقاطعات « تسن كيالك » و « تين شان » و « زنكاريا » التي تشكل المقاطعات الغربية من الصين الشعبية .

وانه لمن المفيد ان يحدد أولئك المسلمون في التاريخ أولاً ، ومن ثم في الجغرافيا السياسية ، اذ ان المستشرقين غالباً ما يتجاهلونهم ويسهون عن ذكرهم لوجودهم في الاتحاد السوفياتي .

فهم يشكلون قوة حية وينتمون الى الاسلام كسواهم ، غير ان السوفيات قد جعلوهم علمانيين بسرعة والى حد بعيد . وفي كل حال لسنا في صدد إعطاء حكم سياسي إنما علينا ان نكتفي بدرس الواقع . فقبل ثورة أكتوبر كان القياصرة الروس يعتبرون تلك المناطق النائية من الامبراطورية مواطنين برابرة يسكنها شعب مستعبد ، كما كانوا ينفون إليها المجرمين والذين يهددون أمن العرش القيصري وسلامته . وكان التعصب الديني مسيطرأ عند بعض المسيحيين والمسلمين بما حدا بالقياصرة الى اتباع سياسة التفرقة وحتى الاضطهاد للمسلمين في أوساط آسيا بشكل هدد حريتهم في ممارسة دينهم .

ففي القرن الثامن عشر هدمت القوى القيصرية عدداً كبيراً من المساجد كما حظرت الصلاة في الأماكن العامة في آسيا الاسلامية . ولمدة قرن كامل فرض التنصر فرضاً على المسلمين . غير أن تلك الطريقة وطدت ايمان المسلمين بدينهم .

وكان مقابل ذلك بعض الحسنات لسيطرة سانت بطرسبورغ على مسلمي آسيا الوسطى : وأهمها ذاك التمازج بين الاوروبيين والآسيويين الذي لم تشبه أية اعتبارات عنصرية أو دينية ، ففي القرن التاسع عشر نشأت بين الموظفين الروس الاوروبيين من جهة وسكان البلاد الأصليين من جهة ثانية طبقة عنصرية ثالثة .

والغريب في الأمر ان المسلمين كانوا يزوجون برضاهم بناتهم من مسيحيين فيحيون معاً كأزواج لكل من الزوجين دينه .
وعند وصول السوفيات الى الحكم انقلبت الاوضاع رأساً على عقب . فبعد أن هزم السوفيات الجيوش البيضاء في سيبيريا، تمركزوا في تركستان .

وكادت أولى سني الثورة أن تكون قاضية على الحياة الدينية في تلك المجتمعات الاسلامية . فهدمت مساجدهم أو أففلتها أو حولتها الى ثكنات عسكرية أو مراكز سياسية . كما حول بعضها الى أماكن للتسلية العامة . واستولت الدولة على كل أملاك المؤسسات الدينية وأففلت جميع المراكز الدينية وأوقفت المشايخ واضطهدتهم . وحظر نشر القرآن كما ألغيت الأبجدية العربية التي كانت وحدها مستعملة في تركستان واستبدلت بالأبجدية الروسية . وقد أصاب الدين الاسلامي يومذاك ما أصاب جميع المذاهب الدينية في روسيا فمنع منعاً باتاً . وقصدى الناثرون كذلك للمؤمنين فأوقفوا الكثيرين منهم متذرعين بحجج سياسية . وعندها تنهت الدولة السوفياتية ، حسب ما أراده لينين للدور الهام الذي يجب ان تقوم به شعوب آسيا الوسطى في المساهمة ببناء الاشتراكية في روسيا اذا ما طورت بقيادة ماركسيين واعين ، عاد السوفيات نهائياً عن موقفهم السابق واتبعوا سياسة اللين مع المسلمين .

وهذا لا يعني ان ميزات المعابد القديمة قد أعيدت لها أو أنه أعيد اعتبار التقاليد . إنما أصبحت سياسة موسكو أكثر مرونة

من قبل اذ حاولت ان تجعل من اولئك المستعبدن القدامى مواطنين صالحين كسوام ، فاستبدل وجه الاستعمار القيصري بجمهوريات فدرالية وفقاً لتعاليم ماركس ولينين . وأنشئت جمهوريات ذات حدود جغرافية بيّنة لها مجالسها وحكوماتها شبه المستقلة في ما يتعلق بإدارة الشؤون الداخلية .

وهكذا برزت الى عالم الوجود ثنائي دول اسلامية سوفياتية :

— أذربيجان وتريد مساحتها عن مساحة بلجيكا وتقع بين القفقاز وبحر قزوين وعاصمتها باكو .

— التركمانستان وتساوي مساحتها مساحة النمسا وعاصمتها أشكباد وهي تقع في تخوم صحراء الرمال السوداء المربعة « الكراكوم » .

— الازبكستان الدولة التي تحمل لواء الطليعة بين الدول الاسلامية السوفياتية وفيها توجد المدينتان التاريخيتان بخارى وممرقند . والمؤسف ان تلك العجائب الشرقية أصبحت مجرد ذكرى إذ ان عاصمة الازبكستان اليوم واسمها طاشقند ، هي مدينة حديثة : مدينة اشجار وبساتين وزهور . وما تزال هنالك مدينة صغيرة بيوتها من الطين تحمل في وجهها روعة القرون الماضية . ومساحة هذه الجمهورية تساوي مساحة ايطاليا .

— التديجيكستان الواقعة بين الصين والباكستان والأفغانستان وعاصمتها ستالينباد ، وهي تساوي بلجيكا مساحة .

— الكرغيزي وهي الجمهورية الاسلامية التي حافظت على

شقيقتها أكثر من سواها . عاصمتها فروتز ومساحتها كمساحة بلجيكا .

— الكزخستان الواقعة في شمالي الجمهورية السابقة ولها حدود مشتركة معها جميعاً . عاصمتها كزكندا . ومساحة كزخستان تنيف عن ضعف مساحة فرنسا .

— تتريا وبشكيريا وعاصمتها كزاني وأوفا . وتقعان في شمالي الكزخستان ولا تزيد مساحتهما عن مساحة انكلترا . وعدد سكان هذه الجمهوريات الاسلامية يربو عن العشرين مليون نسبة أكثرها في منطقة أذربكستان التي تحتوي وحدها على ثمانية ملايين نسمة .

وفي سنة ١٩٣٦ سُن دستور للجمهوريات آسيا الوسطى السوفياتية فصلت بموجبه الكنيسة — والمسجد — عن الدولة ، وُمنحت حرية ممارسة الاديان شرط ان ينصرف رجال الدين إلى المهام الروحية وألا يتدخلوا في الشؤون السياسية . وقد أشرفت الدولة على انتخاب أربعة مفتين للمسلمين لكل منهم منطقة معينة : واحد لمسلمي آسيا الوسطى ويقم في طاشقند ، وثان لمسلمي سيبيريا وروسيا الأوروبية ويقم في «أوفا» عاصمته الروحية ، والثالث في الدغستان لمسلمي القفقاز وبحر قزوين ، والآخر مقيم في باكو للمسلمين الشيعة .

إن العامل الاساسي في نجاح سياسة السوفيات في آسيا الوسطى هو التقسيم السياسي للمسلمين الذين يحبون في ظل الكرملين . فقد اتخذ العامل الانتولوجي أساساً في تقسيم الجمهوريات ، فخطت

حدود كل جمهورية بحدود الارض التي يسكنها شعب ذو عادات وتقاليد واحدة . هذا بما سهّل للحكومة السوفياتية ان تجعل منهم أصدقاء بإثارة شعورهم القومي وتمجيد ذكرى أبطالهم وإحياء تقاليدهم وفولكلورهم وبالإبقاء على لغاتهم وثقافتهم الخاصة او معاملة ممثليهم في مجلس السوفيات الأعلى على قدم المساواة مع المندوبين الأوروبيين . ولكي يعطى للجميع وسيلة واحدة للمقابلة ، فرض تدريس الروسية إلى جانب اللغات الأم في جميع الجمهوريات الاسلامية ، كما فرض استعمالها أيضاً في الحياة العامة . وإنه لمن الطبيعي او البديهي ان تكون المرأة قد أصابت نصيبها من تلك الثورة الفكرية . ولم تتوجه العناية نحو السيدات والأمهات ، إذ أنه لا بد لأولئك من ان يحفظن ولو في قرارات نفوسهن تقاليد الأجداد وعادات الماضي . ولما وجهت العناية نحو الفتيات الصغيرات لتحويل شخصياتهن نحو ما يجب ان تصبه المرأة المسلمة السوفياتية . وقد يلقي المتجول في أسواق طاشقند وممرقند بعض النسوة اللواتي ما زلن يلتقن « بالبارنجا » ويتقنن بالحجاب الاسود المصنوع من شعر الخيل .

أما الاجيال الطالعة التي ربيت على حساب الدولة من غير ان تجبر على خلع القناع فهي سعيدة بتحررها منه لأنه حسب مايقول المثل الأذربكستاني الشعبي : « الشمس نفسها أعجز من أن تضيء تحت الحجاب » .

وقد فتحت أمامهن جميع فروع التربية كما ان مدرسة الحزب الصارمة قد جعلت منهن ماركسيات بمتازات ، وهن يتلقين

دروساً حديثة تهيئهن للعمل في حياة الدولة الاجتماعية على قدم المساواة مع الرجال . ففي سنوات قليلة ملاً العهد الجديد بشبكة ضخمة من المدارس والمكاتب والمؤسسات الثقافية ، تلك الصحراء « الثقافية » القاحلة حيث كان ثمانون بالمائة من السكان أميين . وفي كل جمهورية أنشئت عدة مدارس تكنولوجية ومهنية . كما أنشئت أيضاً جامعات وأكاديميات علمية في كل المناطق . كما ان تخصصات مكاتب الاستعلامات والمطابع والصحف الثقافية والجامعية كانت تزداد في كل مشروع سنوات خمس . ففي جمهورية تدجكستان وحدها ، التي كانت قديماً مقاطعة فقيرة جبلية متأخرة أكثر سكانها من الرعاة ، وحيث كان الاطفال يجهلون كل أثر للكتابة او القراءة ، أنشئت في أقل من عشرين سنة ثمان مزارع من بينها دار للأوبرا و ٣٧٥ صالة سينما متجولة بين البدو والقبائل ، وما يزيد عن ألف مكتبة شعبية .

ففي ستالينباد يصدر اليوم أكثر من خمسين صحيفة وما يزيد عن عشر مجلات . وهناك ٤٠٠٠٠ طالب من أصل ١٦٠٠٠٠٠ ساكن . وأعجب ما في الامر ان عدد الفتيات يربو عن عدد الفتيان . فالفرق لا شك شامع بين الجيلين النسائيين : فالجيل الاول من النساء المسلمات لا يختلف في شيء عن نسوة المدينة وبغداد والقاهرة ، بينما الجيل الثاني مؤلف من نساء سوفياتيات لا يتمتعن بجميع ما للرجال من حقوق وحسب بل ان أكثرهن يعتبرن الدين مجموعة قصورات وأوهام عجائز شأنهن

في ذلك شأن مواطناتهن المسيحيات .

غير ان بعضاً من آثار الروحية الدينية التي تحكمت بأجسادهن أجيالاً طويلة ما تزال حية حتى اليوم . وليس المقصود بذلك طبعاً احترام العادات او الصيام في رمضان أو الاحتفال بالعيد الكبير او الوضوء او الصلوات الخمس اليومية ، ولكن الظاهرة الحية هي ان أكثر الفتيات عدن يطالبن بالزواج الديني الى جنب الزواج المدني . والحكومة السوفياتية من جهتها قد أرصدت بعض الاموال لترميم المساجد التي تهدد بالدمار . وهذا لا يعني ان الاماكن التي استولت عليها الثورة سترجع إلى أصحابها . غير انه قد أذن من جديد لمدرسة بخارى التي كادت شهرتها تضاهي شهرة الازهر ان تفتح أبوابها وتخرج العلماء . ومدة الدروس فيها تراوح بين ثمان او تسع سنوات . وأصعب ما فيها بالنسبة للتلامذة ان القرآن فيها يدرس بالعربية « وفي سنة ١٩٥٣ قد تخرج منها ٨٠ عالماً » .

والامكانيات العلمية التي فتحتها التربية السوفياتية في النساء المسلمات جعلت منهن طبقة من العاملات الممتازات في شتى حقول الاقتصاد « إذ انه يحق لمن في الدستور ممارسة أية مهنة بشأن وتحمل كل أنواع المسؤولية » .

والكادر التكنيكي النسائي الجديد في آسيا الوسطى قد أنشئ بموجب مشاريع السنوات الخمس التي ترمي الى تزويد الجمهوريات الاسلامية بتجهيز صناعي وزراعي ضخم . فقد عمل على استثمار جميع مناجم النحاس والحديد والرصاص والفحم

الحجري والبترو. وجميع هذه المواد الأولية قد غذت الانتاج إلى حدٍ سُدَّت فيه جميع حاجيات المنطقة الاستهلاكية وأصبح من أهم دعائم الاقتصاد في الاتحاد السوفياتي . والانهر الضخمة وشلالات الجبال العالية قد أعطت للمنطقة القوة المائية الكافية لانعاشها بالكهرباء ولري جميع المناطق الزراعية البعلية. والجدير بالذكر انه في أواخر خامس مشروع للسنوات الخمس كانت مخصصات آسيا الوسطى الانشائية تساوي نصف مخصصات الاتحاد. وقد زاد في توجيه جهود الحكومة الى هذه البلاد الاسلامية اكتشاف الثروات المعدنية الوفيرة فيها .

فكرخستان وحدها تحتوي على أكبر منجم «الكروم» في العالم كما تحتوي على ثلثي كمية النحاس ونصف كمية الرصاص والقصدير في الاتحاد السوفياتي . وقد أثار اكتشاف الكميات الضخمة من الاورانيوم اهتمام السلطات العسكرية والمراجع العلمية . فهذا الاكتشاف الاخير قد رفع الى الصف الاول في الحياة القومية السوفياتية ، مناطق كانت لثلاثين سنة خلت مقفرة قاحلة .

وارتفعت في تلك الاماكن مداخن المعامل والافران الصناعية والمقاهم ومصانع الطبخ المعدني والاواني الزراعية الضخمة ومعامل الترابية متعددة بشموخها عنان السماء . فحتى في أواسط الصحاري والجبال تتجاوب قرعة الآلات الصناعية مع جلبة القطارات والشاحنات التي تجتاز تلك البقاع طويلاً وعرضاً . هذا هو الجو الجديد الذي تحيا فيه المرأة المسلمة السوفياتية .

ففي كل معمل وفي كل مركز تجدد نساء بعدد الرجال . فتشريعن النقابي لا يختلف في شيء عن تشريع الرجال بل هو يعطين بعض الميزات . فمرتبات النساء التي ما كانت لتتعدى الـ ٥٥ ٪ من مرتبات الرجال في عهد القيصرية ، وخاصة مرتبات النساء المسلمات ، هي اليوم مبنية على أساس من التكافؤ والاختصاص دونما تمييز بين الأجناس . فبفضل ذلك قد رأينا مثلاً في جمهورية تركمنستان ثلاثين امرأة على رأس عدة منشآت صناعية ، والبعض منهن ما تزال تذكر حياتها البدوية في صباها . وفي تدجكستان حيث كانت كلمة « عاملة » بجهولة تماماً ، هنالك اليوم ٢٥٠ امرأة مهندسة وإخصائية من بينهن ٨٠ رئيسة مصنع تضاف إليهن ٣٠٠ معاونة . كما تشغل بعض النساء أيضاً مراكز ضباط في البحرية يعملن في الشبكات النهرية والبعض الآخر منهن يقود القطارات والآلات الزراعية والشاحنات .

وأما الضمانات الاجتماعية التي تتمتع بها عاملات الصناعة فهي شبيهة بتلك المعمول بها في بلاد أوروبا الغربية . فالجبال والمرضعات لا يجبرون على أداء ساعات إضافية أو العمل في الليل ، ولا يرسلن في مهمات .

وباستطاعة الطبيب إذا ما رأى ذلك مناسباً أن ينقلهن إلى عمل أسهل أداء مع الحفاظ على مرتبهن السابق . وزيادة عن العطلة السنوية المعطاة لجميع العمال ، فالنساء الحاملات يتمتعن بـ ١١٢ يوماً تدعى عطلة الأمومة ، أي بنسبة ثمانية أسابيع قبل الوضع وثمانية بعده .

وتتمتع النسوة المسلمات السوفياتيات بالتساوي مع الرجال بحق الراحة الذي يفوق العطلة السنوية في الاتحاد السوفياتي. فالواقع أنه في حال وجود عاملات من ربات المنازل وصاحبات العيال ، تقدم الدولة والنقابة لمن ييوتاً هيئت خصيصاً للراحة حيث يستطيعن الذهاب مع أولادهن . فبينما تكلف الأولاد مربيات يربعن ألعابهم ويسهرن على راحتهم ويساعدنهم في فروض العطلة ، بإمكان الأمهات أن يستسلمن للراحة أو للعناية الجسدية من غير أن يتركن في سبيل ذلك أولادهن . فيمنح الإقامة لمدة العطلة السنوية المعطاة للموظفين وللعمال ، تقدم لمن مجاناً وفي حال تعدي الرسم الـ ١٥٠٠ روبل تدفع العاملة ٣٠ ٪ ويسدد الباقي من صناديق النقابات . وفي الواقع تأخذ الدولة عادة على عاتقها أمر تسديد تلك النفقات عوضاً عن النقابات .

وما كانت القروية لتكون أقل تطوراً من العاملة . فالقوانين الثورية قد ألغت الملكية وأمتت الارض وعممت عليها ، كما هو الحال في جميع أنحاء الاتحاد السوفياتي ، نظام العمل الجماعي « الكولخوزي » . إن مستوى حياة الفلاح الروسي قد ارتفعت بشكل لم يعده قط أيام الحكم القيصري وذلك بفضل تعميم الآلة في الزراعة « فمطقة كرجيزي تستعمل وحدها ١٠٠.٠٠٠ تراكتوراً » وتوسيع شبكات الري المتزايد وانتشار طرق المواصلات في الداخل بما أمتن تصريف الانتاج الزراعي وخاصة إنتاج القطن الذي نما إلى حد أصبح معه من حيث الجودة والكمية ، الانتاج الزراعي الأول في الاتحاد السوفياتي . فالفلاح باستطاعته

اليوم أن يأكل عند جوعه وأن يعلم جميع أبنائه إذا ما أظهروا مواهب لذلك .

أما بالنسبة للمرأة ، فإلغاء الملكية الفردية وتعميم الملكية الجماعية لم يغيرا في أوضاعها شيئاً أساسياً لأنها ما كانت قبل الثورة لتشارك في اقتسام المحاصيل أو لتوث شيئاً ، فهي تقع اقتصادياً تحت رحمة زوجها . وكانت ، كما هي الحال في سائر البلاد الاسلامية ، وبشكل يناقض السنن القرآنية ، تعامل كأي شيء آخر قابل للبيع والشراء . فهما كانت الأوضاع التي تتمتع بها المرأة المسلمة السوفياتية اليوم ، فهي لن تتأسف مطلقاً على الماضي .

وفي الزراعة أيضاً بلغت النسوة بسرعة درجة تحمل التبعات . فربات العيال في أذربكستان وكرغازي هن في نفس الوقت رئيسات ورشات زراعية ومديرات مزارع جماعية أو مشرفات على الكولخوزات . ففي الحقل الزراعي تحتل النسوة اللواتي تخرجن من الجامعات في جمهورياتهن كأخصائيات في الزراعة والطبابة البيطرية ما يقرب من ٤١ ٪ من جميع مراكز الاختصاص .

لن أذكر في هذا المجال إلا المرأة شامانا كازانوف التي انتخبت رئيسة لأكبر كولخوز في أذربيجان . لقد كانت هي المسؤولة إدارياً وتكنيكياً عن جميع فروع الكولخوز الزراعية . وهي أم لثلاثة أطفال كانت تلقاهم وزوجها في كل مساء . وأما في النهار فكانت تضع أطفالها في روضة الأطفال الخاصة بالكولخوز وتسلم شؤون المنزل لوالدتها . وأدت تلك المرأة مهامها بنشاط

أثار الإعجاب فانتخبت مرتين على التوالي بطة العمل الاشتراكي
وإذ نجحت في بعض الإصلاحات الخطرة في سبيل تطوير الانتاج
الزراعي ، انتخبت تلك المرأة المسلمة نائبة في مجلس السوفيات
الأعلى للاتحاد السوفياتي .

إن حياة نساء فرغانة ، أجمل هضاب الأذربكستان ، تعطي
الصورة الحية لحياة المرأة المسلمة في جميع أنحاء الجمهوريات
السوفياتية . وفي واحة مرجلان ، مركز إنتاج الحرير منذ القديم ،
أنشئ أكبر معمل نسيج في الاتحاد السوفياتي . وحياة النساء
العاملات فيه دليل مدهش على التقدم الذي أحرزه الشعب
الأذربكستاني . فمن واحة « ألسك » إلى مرج « مرجلان » تمتد
البساتين والحقول على مد النظر وبعده . وحقول القطن تحيط بها
أشجار التوت والصفاف . إن حياة الواحة القديمة منوطة بفرع
من نهر الشاهيردان المدعو مرجلان ماي . وفي قلب مرجلان لا
يوجد الصفاف إلا على طول الطرقات بينا يمشي شجر التوت
البساتين . إن حياة سكان فرغانة متعلقة منذ القدم بإنتاج القطن
والحرير .

إن أكتوية نساء مرجلان يذكرن جيداً الدور الذي مثلته
محضاتهن لدود القز ، إذ كن يضعن أكياساً صغيرة مملأة
ببويضات دود الحرير عند صدورهن . فكانت حرارة الجسد
البشري تنمي الدود لتخرجه في اليوم الثاني عشر مكتملاً . فإذا
وضعت تلك الأكياس تحت الإبط أو في مكان حار خرج الدود
مكتملاً . فما كان إذن باستطاعة الفتيات الصغيرات أن يلعبن في

الربيع إذ كان عليهن أن يرعين دود الحرير بأجسادهن .
وكانت النسوة يزوجن في سني العاشرة أو الثالثة عشرة من
عمرهن . والتي لم تكن تملك نولاً خاصاً بها كان عليها أن تعمل
لحساب أحد التجار بأسعار بخسة للغاية . وكان عليهن أن يعكفن
طوال سنين عديدة على حوض ذي رائحة كريهة ليلتقطن منه بقايا
خيوط الحرير ليغزلنها .

إن جمال طبيعة واحاتهن المشهورة في العالم أجمع كانت
مجهولة منهن ، فالعالم من تحت ثقابهن الصفيق كان مظلماً أبداً .
والنساء اللواتي أسفرن أولاً عن وجوههن رُجمن بالحجارة أو دفن
حيات أو قتلن بأيدي البكاوات والمشايخ الرجعيين . ولكن ما
من قوة استطاعت أن تقف في وجه تطورهن . فكما حصل في
مصر قامت قبضة من النساء يجمعن بعزم وشجاعة رفيقاتهن حولهن
ليمنعن الزواج المبكر الذي كان يفرض عليهن فرضاً . وغالباً ما
كان تغيير الحكم يساعدهن في نيل مبتغاهن .

لقد لقين في المصانع التي بناها السوفيات عملاً بشروط إنسانية
سهلة . وعملن في تلك المصانع بدون تحيز وباحترام كلي . إن
عجائب التكنيك في القرن العشرين لم تدهشن بقدر ما أدهشن
أمر السماح لهن بتسمية أهل أزواجهن بأسمائهم ، وبمرافقتهم إياهم ،
وباحتلالهن مراكز الشرف في العديد من الاجتماعات حيث يسمح
لهن بالكلام أمام الجمهور .

فاللواتي تزوجن في تلك الفترة سُحرن إذ سمعن لهن بعدم
التستر عن عائلات أزواجهن قبل ولادتهن الأولى . واكتشفن

بدهشة أنه باستطاعتهم أن يتلفظن بكلمات « كمفتاح » أو « قفل »
دونما ان يعرضن صحة أولادهن لأي خطر .

وغادرن لأول مرة منازلهن القروية بخوف متجهات نحو المصانع
ليجربن فيها حياتهن الجديدة . وغالباً ما كن يصطحبن معهن
اصغر أولادهن .

فتعلمن ، لكونهن مطيعات ، استعمال الآلات سريعاً . وتعلمن
بعد ذلك القراءة والكتابة كما أبدن اهتمامهن بتاريخ بلادهن
عندما أسست دور الثقافة . وإليك خبراً عن إحداهن :

في مصنع النسيج بطاشقند ، عاصمة أذربكستان ، امرأة تدعى
« نوريا مكسيموفا » . كانت أمية كسائر نسوة أذربكستان .
وقد تكون مميت « نوريا » لهذا السبب إذ أن كلمة نوريا تعني
« المنورة » . ابتدأت نوريا عملها في معمل النسيج في طاشقند ،
واليوم ترى صورتها مرفوعة في دار الثقافة بين صور بطالات العمل
الاشتراكي . وفي انعقاد مؤتمر السلام في سنة ١٩٥٠ أوفدت
« نوريا » من قبل رفيقاتها الى المؤتمر .

ولم يحصر دور النساء في العمل الصناعي ، فعدد طالبات العلوم
يوازي عدد الطلاب . وقد أحرزن انتصاراً باهراً في عالم الفن .
فمنذ عشر سنوات كان يقوم الرجال بتأدية أدوار النساء على
المسارح المتنقلة . وفي عشية ليلة من سنة ١٩١٨ ظهرت على أحد
المسارح في الهواء الطلق في « غنكان » فتاة تتكلم الأذربكستانية .
وطغت على الجمهور فترة من صمت ، فانتهزت الممثلة تلك الفرصة
لتوالي تمثيلها بهدوء وسكينة . غير أن صيحات الامتنكار والهزء

ما لبثت أن انطلقت تهدد الممثلة . وانطلق أحدهم ليأني بالبرمكي
عندما صرخ احد الحضور : « البرمكي » فأخليت المقاعد في لحظة
بصر . وفر الممثلون مع الممثلة الجريئة متسترين بالظلمة . وقد
أصبحت في ما بعد تلك المرأة « ماريا كرنيسوفا » الممثلة
الشهيرة .

وأولى اللواتي تجربأن على حذو مثالها « مكسيا كاريافا » التي
كانت تتخفى على أثر كل تمثيلية كما ظلت سنوات طويلة لا تتجراً
على نشر اسمها ، فعديد من رفيقاتها دفعن حياتهن ثمناً لعدم
تستورن كالممثلة « نركون » - وقد ألفت مسرحية باسمها - و « أورشن
اوي » اللتين قتلتا بأيدي بعض الرجعيين . وأما الممثلة « سارا
ايشنتيراييفا » فقد باعها والدها وهي في التاسعة من عمرها إلى أحد
تجار « غنكان » بخمسة مائة روبل . غير أنه عاد إذ بكته ضميره
فاستعاد الفتاة . لكن الصغيرة تمكنت من الفرار والتجأت إلى
أحد المياثم . وفي سن الخامسة عشرة ذهبت إلى موسكو لتتابع
دروسها وهي اليوم من أشهر ممثلات أذربكستان .

ففي الماضي لم يكن هنالك إلا مغنون وراقصون متجولون
يجولون القرى ويجيئون حياة متشردة . وبديبي أنه لم يكن بينهم
نساء . أما اليوم فالمغنيات والراقصات الاذربكستانيات يجرزن
الانتصار تلو الانتصار على مسارح الاتحاد السوفياتي . فهذه « حليلة
نزيروفا » راقصة الفولكلور الأذربكستاني ، وتلك « كليا
امبايلوفا » في رقصاتها الشهيرة التي انتزعت مراراً التصفيق من
جماهير الشباب في مؤتمراتهم .

ولست هنا في مجال تعدادهن لأنهن كثيرات وأكثرهن نلن
جائزة ستالين على فنهن الرفيع .

وللمرة الثانية أعود فأقول إنني لست هنا في مجال الحكم
السياسي على تطور المرأة المسلمة السوفياتية . أما الواقع فإنهن قد
اكتسبن مع حريتهن معرفة واحتراماً لا مثيل له على ما أظن
عند فتيات « الأموداريا » أو عند الفتيات اللينيات اللواتي حدثنا
عنهن الدكتور فاين !

الجزء الثاني

حياة المرأة في شمال افريقيا

المرأة المراكشية

لقد ظلت بوادر الرجعية متفشية في صفوف النساء المراكشيات
الى أمس القريب حتى برزت من بين تلك الصفوف المتحجرة
ثلاث فتيات عجيبات هن : الأميرة ليلي عائشة ابنة السلطان محمد
ابن يوسف ، وثريا شاوي الطيارة ذات الحظ المشؤوم ، وزهور
زرقا لسان حال نساء حزب الاستقلال .

نشأت ليلي عائشة في كنف والدها لتكون كما أرادها قدوة
للنساء المراكشيات في عبورهن من الماضي الى المستقبل . وبرزت
ليلى لأول مرة كقدوة في حفل أقيم في سنة ١٩٤٧ في مدينة
« صاله » العربية لتدشين مدرسة جديدة للفتيات المراكشيات إذ
وقفت الأميرة بثيابها الاوروبية أمام صفوف الفتيات المقنعات .
وعندما صعدت الى المنبر لتلقي كلمتها اعتبرت نبوات صوتها

*

خلجات تأثر إذ ان ما مستقوله ما كانت لتتجراً عليه قبلها أية امرأة أو أية أميرة تنحدر من الرسول الكريم . غير أن والدها كان يدعم موقفها وهو الملك الذي عرف كيف يكون رجلاً كبيراً وأباً وروحياً لجميع المؤنات في الامبراطورية الشريفة . وفي إلقائها لكلمتها المليئة بالثقة بالنفس وبقوة الشخصية وبالايمان العميق وبالبلغة التي تتحلى بها مثيلاتها من اللواتي لم تصدمن الحياة ، حملتها نشوة غريبة عندما صرخت بملء قلبها بأولئك الطالبات المراكشيات اللواتي يصغين إليها طالبة منهن ألا يترددن في سباق الزمن والتحرر . فأجابتهن الطالبات بحركة تاريخية كخطابها إذ مزقن جميعاً النقاب عن وجوههن . فولدت مع حركاتهن هذه المرأة المراكشية الجديدة .

ومنذ تلك الساعة لم يعد بمقدور أولئك النسوة ان يتراجعن فصيرهن قد قرر وما عليهن إلا أن يرضعن قدماً الى الأمام . لكن الحماس في «صالة» ربما كان يومئذ وليد العاطفة لا وليد النضج والوعي . وعندما نفي السلطان بعد سبع سنوات ظهرت المرأة المراكشية بكامل نضجها ووعيتها ، واشتركت جميع الفتيات في المقاومة التي نظمها حزب الاستقلال وكانت السبب المباشر في عودة السلطان . وأية دلالة أوضح على الوعي القومي من تلك التي أظهرتها نساء المغرب حين امتنعن عن مجاعة رجالهن خوف ان يحملن ويلدن أولاداً في ظل حكم بن عرفه . ان ذاك الشعور العميق وذاك التمسك المستميت بالمبادئ والقيم كافٍ بأن يظهر الدرجة المرموقة من الوعي القومي التي بلغت المرأة المراكشية .

عند عودة الاميرة ليلي عائشة من المنفى انصرفت بعد أن قالت شهادة البكالوريا في ثانوية الرباط كسائر الفتيات ، إلى الحياة في قصر والدها متحررة منطلقاً محترمة للسنن الاخلاقية والدينية . فالسلطان الذي يحبها بجرارة والذي أشرف عن كسب على تربيتها قد درّبها على ركوب الخيل والسباحة والرقص . وكثيراً ما رأيت الأميرة تسبح على شواطئ الرباط كما انها تقوم كل يوم بعد زيارة والدتها في حرمها بجولة في سيارتها الحديثة في شوارع المدينة . وهي لا تخفي إعجابها بالثقافة الغربية ولا بمظاهر المدنية الحديثة .

فشخصية فذة كذلك لم يمكن بمقدورها ان تبقى بعيدة عن الحياة السياسية ، فأوفدت في تشرين سنة ١٩٥٦ مع أخيها مولاي الحسن على رأس وفد مراكشي في زيارة رسمية للولايات المتحدة . فاستقبلها الرئيس ايزنهاور ، كما قابلت وأعضاء وفدها المؤلف من وزيرين وقائد الجيش الملكي ، العديد من الشخصيات الاميركية . فكانت أول أميرة مسلمة وطئت قدماها أرض الولايات المتحدة وأول امرأة تمثل دولة اسلامية في مهات قيادية وبين رجالات القيادة العالمية .

اما ابنة السلطان الصغرى ليلي أمينة التي ولدت في المنفى فقد يكون بوسعها ان تنشأ وترى جميع نساء مراكش كما تتمنهن أختها ليلي عائشة . فهي في الثالثة من عمرها وقد قدمها والدها على ركبته للعالم ... وكلنا يدكر ان تلك الابنة الصغيرة قد حضرت المباحثات الرسمية التي جرت بين محمد بن يوسف ورجالات

الدولة الفرنسيين عند عودته منتصراً من منفاه . فأمامها اليوم طريق طويل من المكاسب والتجارب في سبيل إنفاذ أمتها ومواطناتها . فالى تلك الأميرة التي لا تحسن القراءة بعد بأية لغة يكتبها البشر ، أهدي هذه الصفحات .

والى اسم أميرة الحرية يضاف اليوم في المغرب اسم صبية أخرى تدعى : ثريا شاوي . نشأت هذه الفتاة في عائلتها بورجوازية مسلمة صغيرة من عائلات كازا بلانكا الشديدة التمسك بالتقاليد القرآنية . وشعرت أن عليها مجازاة العصر الحديث فانخرطت منذ الثانية عشرة من عمرها في حزب الاستقلال . وفي سن الثامنة عشرة حصلت على شهادة في قيادة الطائرات وحلقت وحدها في الفضاء على متن طائرة صغيرة . وفي يوم عودة السلطان أغرقت «ثريا» مدينة الرباط من الجو بمناشير الترحيب والتأهيل . وكانت تلك آخر جولة لها إذ وجدت بعد مدة وجيزة مقتولة بأيدٍ أئيمة ما تزال مجهولة حتى اليوم . فإن كان الذين قتلوها من المتطرفين الذين لم تعجبهم جرأتها فليعلموا أنهم قد اشتروا بدم «ثريا» الجميلة حرية المرأة المراكشية .

وأما زهور زرقة رفيقة ثريا في الجهاد وإحدى مناضلات حزب الاستقلال فقد ثبتت في قلوب أربعة ملايين من المراكشيين نتائج النصر الذي أحرزه رجال مراكش الجديدة . ففي مؤتمر حزب الاستقلال الذي عقد في فاس في ٤ تشرين الثاني سنة ١٩٥٥ وقفت تلك الصبية التي لا تتجبد إلا العربية لتتحدث الى المجاهدين المراكشيين عن أوضاع المرأة المهمة منذ القدم . وقد علقت في

خطابها الشهير ذاك في المؤتمر على ضرورة خلق جهاز نسائي لتربية وتوجيه الأجيال الصاعدة . كما أكدت حقوق المرأة المشروعة في ميدان الزواج . وتناولت في القسم الثاني من خطابها موضوع السياسة الاجتماعية . ان تلك الكلمات لمدهشة حقاً تتفوق بها مسلمة ذات تقاليد عربية محضة . هي الظروف المؤلة التي تحياها العاملة المراكشية التي دفعت بها الى تلك الانتقادات اللاذعة .

اما النساء اللواتي يعملن في المغرب فمعظمهن من الطبقات الفقيرة ، لذلك لم يثر واقعهن اهتمام الدولة مطلقاً . وأكثرهن من فتيات او نساء الجبال اللواتي استقدمهن آباؤهن او أزواجهن الى المدينة التي سبقوهن إليها فنقلوهن بذلك من قساوة حياة الفلاح الى أوكار الشقاء التي تمتد كأكاليل من البؤس الانساني حول تيجان المدن العصرية الزهية . ومن واقع العاملة المراكشية انما كانت أمية بدون أية حماية نقابية تستخدم في مصانع المعلبات والنسيج بأجور أدنى بكثير من أجور الرجال .

وكانت تلك اليد العاملة النسائية المهمة المستثمرة تشكل قوة لا يُستهان بها . فعند إعلان الاستقلال كان عدد عاملات الصناعة يربو عن المائة ألف ، وعدد المستخدمات المسلمات في البيوت يربو عن الخمسين ألفاً ، وعدد العاملات في المشاريع العامة يزيد عن الاربعة آلاف . وعلى أثر الاستقلال صدر قانون يحدد الاجر الأدنى لساعة العمل النسائية بما يلي :

١٩٦٠ فرنك للعاملة التي يتراوح سنها بين ١٤ و ١٥ سنة

٢٣٠٥٠ - - - - - ١٥ و ١٦ سنة

٢٧٠٤٠ - - - - - ١٦ و ١٧ سنة

٣١٠٤٠ - - - - - ١٧ و ١٨ سنة

وكانت أجور النساء ، وفقاً لهذا المعدل ، أدنى ٢٥٪ من

أجور الرجال .

وقد أحرز تدخل « زهور زرقا » الثوري في المؤتمر ، نصراً أدبياً وسياسياً لا مثيل له في المؤتمرات السابقة ، إذ صوت الثماني مئة عضو بالاجماع بالموافقة على اقتراح زهور بإعطاء المرأة ما للرجل من حقوق سياسية ومدنية .

إن بطلات التحرر النسائي المراكشي ثلاثة لا غير ، قدمت لإحداهن حياتها فداء لعهد جديد . وللمستقبل وحده حق الاجابة . إذا ما كانت أخواتهن المقتنعات سينطلقن متحررات على آثارهن .

النساء الجزائريات

ان نساء الجزائر المسلمات ينتمين إلى ثلاثة وجوه مختلفة ، فهناك العربيات والبربريات ساكنات مدن التل ، وهناك البربريات ساكنات جبال الاطلس وبلاد الهضاب المرتفعة ، وأخيراً الصحراويات المنتميات إلى أصلين مختلفين: المزايبات والطوارق . والعادات التي نجحنا في ظلها نساء الصحراء تستوجب درسا خاصاً بها .

٦ - نساء المدن

يقسم النساء اللواتي يسكنن المدن إلى طبقات ثلاث . الاولى مجموعة النساء اللواتي يعملن أجيرات في البيوت وهن أكثر الثلاثة عدداً . والثانية تتألف من النساء المطلقات اللواتي يحين حرّات أو يستسلمن للذيلة . وهنالك أخيراً عشرات الألوف من النساء المحصنات اللواتي يحين حياة زوجية وضیعة في الاحياء الفقيرة من المدن وأكثرهن يتعاطين الحياطة .

وكان منتظراً أن يثمر وجود المرأة الاوروبية الدائم في الجزائر ، تطوّراً في أوضاع المرأة الجزائرية ، وتقارباً وتعاوناً وثيقين بينها وبين شقيقتها العربية .

غير ان ترفع الاوروبيات حال دون ذلك التقارب ، بل وعلى العكس تماماً عمل على تعميق الهوة بين العقليتين المسلمة والاوروبية خاصة فيما يتعلق بالمسلمات المستخدمات في بيوت الاوروبيين .

ولا توجد أية قوانين إسلامية أو اوروبية لحماية المرأة الجزائرية فإذا ما أرادت أو اضطرّت إلى العمل كأجيرة في المدينة فعليها ان تترك منزل والدها أو زوجها لتسكن بيت أسيادها . والهوة السحيقة الموجودة بين حياة وتربية السيدة والاجيرة ليست في صالح تعاونهما المثمر .

وبديهي ان النسوة المسلمات المستخدمات يتحدرن من عائلات فقيرة إذ لولا فقر عائلاتهم لما كن اضطرون إلى العمل خارجاً . وتعتقد الاوروبية عند ذاك أنها أمام أنثى لا ذكاء لها ولا عقل

ولا تجدر معاملتها لكي تحسن الخدمة إلا بالقسوة . فعلاقات الاجيرة بسيدتها لا تعرف الحسنى مطلقاً ولا أية محاولة للرفاهة . وإذا كانت المرأة الاوروبية تعتقد نفسها أرفع من أجيرتها لأنها تمثل مدنية متقدمة ، فعليها ان تساعد تلك المرأة المتخلفة لكيما تفهم محاسن الحضارة الاوروبية وتعتنقها . ولكن شيئاً من ذلك لا يحدث بين السيدة الاوروبية والاخيرة الجزائرية . فالشرائع المسيحية نفسها أعجز من ان تطوع كبرياء الاوروبيات وتخفف من حدة احتقارهن للجزائريات . بينما كان المسيح يعامل دائماً ببشاشة ورحابة صدر جميع أولئك النسوة الجاهلات اللواتي كنّ يلجأن إليه .

وباستطاعتي ان أكتب مجلداً كاملاً عن سوء المعاملة التي تلقاها الاجيرات المسلمات في بيوت الاوروبيين غير أنني سأكتفي بذكر حادثة واحدة من بين ألوف الحوادث التي تقع كل يوم وقد رواها لي أحد أصدقائي على أثر زيارته لأحد الموظفين الفرنسيين في وهران ، قال : كانت أجيرة هذا السيد الفرنسي ابنة بربرية في الرابعة عشرة من عمرها نزلت حديثاً من الجبل بعد مقتل والدها وأخويها ، وقد حدث ذلك يوم كانوا قادمين من منطقة إلى منطقة فأطلق رجال الأمن عليهم النار فيما تمكنوا من الفرار ووقعوا صرعى مضرجين بدمائهم .

وما كان بوسع تلك الابنة بعد مقتل ذويها ان تبقى في بيتها إذ على أمها ان تعيل ستة أطفال صغار . وبالرغم من ان الاوروبيين لا يتقنون بالوطنيين سكان الجبال

فقد استطاعت تلك الصبية بواسطة قريبة لها ان تدخل في خدمة تلك العائلة الفرنسية . وقد نصحتها قريبتها نظراً للظروف الخطرة التي تعانيها وهران بأن تكون جدّ مطيعة مهما بلغت شراسة سيدتها .

وملكه ، وهو اسمها ، كانت مستعدة لقبول أي شيء في سبيل المحافظة على عملها وما كانت لتتأثر مطلقاً باللامبالاة التي لقيتها في بادئ الامر . كان عليها ان ترجع بعد سنة لزيارة والدتها ومعها مرتبها السنوي .

وفي احد الايام فقدت سيدتها عشرة آلاف فرنك كانت قد وضعتها في أحد أدراج المنزل . واتهمت الفتاة بالسرقة فوراً وما كانت دموعها لتشفع بها . وعند عودة الإبن البكر من المدرسة طلب فوراً تسليم الفتاة الى الشرطة قائلاً لأمه : « أنت لا تدرين يا أماه ما بإمكان أولئك الاجيرات ان يفعلن ، أولم تقل لنا قريبتها أنها ابنة بعض الثوار وان ذويها قتلوا في بعض المعارك ، فقد تكون واحدة منهن ؟ وما اخالك تريدين أن يذهب مالك مساعدة منك للثوار الذين يتهددون حياتنا في كل حين ؟ » .

فسلمت الابنة الى أحد رجال الشرطة ونقلت إلى مركز الشرطة في وهران حيث انطفاً خبرها ولم يسمع بعد عنها أي شيء .

وقد قنبت السيدة الفرنسية في ما بعد الى ان ابنها البكر هو الذي يسرق الأموال إذ كان والده يحرمه منها فكان بالرغم من هذا الحرمان يقضي أوقاته في الملاهي والمقاهي . وأعجب ما

في الأمر انها لم تبلغ الشرطة بأن الابنة بريئة اذ ان سمعة عائلة اوروية أغلى ثمناً من حرية جزائرية بريئة !

وبديهي إذن ان تغفر إلتك العائلات من الاوروبيات . وإن لم يكن بمقدورهن ان يرجعن إلى جباهن فهن بكل حال لن يعين الاوروبيات مطلقاً .

ونتيجة ذاك الشعور الحتمية عند الجزائريات ساكنات المدن ، هي تفتّح وعين و بروز شعورهن القومي في كل احتكاك مع تلك المدنية الاوروية التي عرفنها في مدنها . فبالإضافة إلى الطالبات اللواتي تيسر لهن الاحتكاك بالفكر والحضارة الغربيين عن قرب ، نرى جميع المسلمات وحتى الأميات منهن قد تعرفن بواسطة الاعلانات والصور السينائية الى شكل جديد من الحياة تتأباه مناقبهن النسائية الاسلامية . وكثيراً ما رأين في السينما الاوروية والاميركية مظاهر عالم غريب هو عالم جميع البشر العصريين . فاستولت عليهن رغبة في التقليد جاححة . لماذا عليهن ان يتقنعن بينا سواهن يسفرن عن كل مفاتهن لا عن وجوههن فحسب ؟ ولماذا لا يخرججن من المنزل في وضع النهار بينا سواهن يخرججن في الليل مع أزواجهن وذويهن ؟ ولماذا لا يطالبن باختيار أزواجهن بحرية بين سواهن يقبلن أزواجهن في الطرقات العامة . وقد اصبحت تلك التساؤلات في نفوس الفتيات الجزائريات ساكنات المدن تشكل عقداً خطيرة . ففي سبيل حماية التقاليد القومية لم تقدم فرنسا منذ مئة وثلاثين سنة على اتخاذ أي إجراء لحماية المرأة المسلمة او تطويرها . اما اليوم فكل الدلائل تشير

الى ان المرأة الجزائرية ستنتزع بنفسها ما ضُن به عليها ، وانه لن يكون بعد اليوم للرجال ، مسلمين كانوا ام اوروبيين ، أية سلطة عليها غير السلطة الشرعية الطبيعية !

أما الفئة الثانية من النساء الجزائريات اللواتي تنذر حالتهن بالويل واللواتي لم تأخذ الحكومة أي إجراء في سبيل حمايتهن ، فتتألف من اللواتي هجرهن أزواجهن فانصرفن إلى معاطاة الدعارة . ولم تُنكح المرأة في أي بلد عربي آخر بقدر ما نكبت به في الجزائر من جراء سلطة الزوج الغاشمة . فعدد النسوة اللواتي يلقي بهن في شوارع الجزائر كل سنة يزيد على العشرة آلاف . وأسباب ذلك معروفة لا تتغير : فقد هُجرن إما لأنهن لم ينجبن أطفالاً ، وإما لأن أزواجهن أردن الزواج ثانية وليس بمقدورهم ان يعيلوا امرأتين في آن واحد .

وأعجب ما في أمر المهجر من أجل عدم إنجاب الأطفال ، أن الزوج يتهم زوجته فوراً بأنها السبب في ذلك . فكبرياء الرجال تنسيهم أنه من جراء الامراض المتفشية في شمالي أفريقيا ثبتت الاحصاءات أن ثلث رجال الجزائر غير صالحين لإنجاب الاولاد . ولكن هات من يسمع أو يرحم أو يعي بأنه حتى وإن كانت المرأة لا تنجب أطفالاً فليس ذلك عذراً لالقائها في الشارع كالأفذار العفنة .

فما تراها ستعمل هكذا لوحدها لا نصير لها ولا معين ؟ ألم يكن بمقدور السلطات ان تتدخل في وضع كهذا مطمئنة الى أنها لا تتعرض الى أية تقاليد أو عادات دينية ، لتحمي تلك المرأة

المهجورة ولتنتقدها من برائن الدعارة الى حيث سيؤول مصيرها
حتماً ؟ وحادثة الفتاة المراكشية التي أثبتت على ذكرها في
المقدمة ، ألا تغني عن التكرار ؟!

وتجدر الملاحظة أيضاً الى ان الكثرات من أولئك المطلقات
لسن في حالة يستطعن معها المساومة على أجسادهن ، فهن غالباً
كبيرات في السن . لذلك تراهن ينصرفن الى ممارسة أحقر
مهنة بشرية : الى الاستجداء والذل ، لكيما يحصلن على بعض
كسرات من الخبز . وما ترى سيكون مصير الأولاد الذين
سينشأون في رهبة البؤس الأدبي والمادي هذا ؟ ! وهل من
العجب أن يصبح أولئك الأولاد في شبابهم لصوصاً مجرمين
يفسحوا المجال أمام الأوروبيين لكي يصبوا العرب جميعاً في
أفريقيا الشالية بالتأخر والوحشية ؟

أما المرأة الجزائرية التي تعيش في المدينة مع أهلها أو في
بيت زوجها فمصيرها لا شك أفضل . فجميعهن يتعاطين الحياطة
ولا يجدن متسعاً من الوقت للتفكير أو التأسف على مصيرهن .
أما المؤسف حقاً فكونهن يسكنن منازل قلّ ما ترى النور
والهواء الطلق . فهن مكدسات في تخاشيب ملتصق بعضها ببعض
تقوح منها روائح الطهي المزعجة وروائح الأقدار ودخان النار
البداية . فما هنالك بساقين ولا مروج ، بل زحمة دائمة وعجيج
مستمر يأتيان عن صراخ الباعة وضجة الصبية الذين لا يحسنون
اللعب إلا على سطوح المنازل ولا يدخلونها إلا من الشبايك . ففي
كل من تلك الاكواخ غالباً ما تجد أربع نسوة أو خمساً يعملن

فيه وينمن فيه تغمرهن في النهار نصف ظلمة ويضيء لهن في الليل
قنديل قديم .

أما تلك العائلات التي تعيش في الأحياء المؤبدة فحدث عن
بؤسها ولا حرج فهي تنام من غير ان تخلع ثيابها القذرة في خليط
جنسي يصبم بالعار المدنية المستعمرة هناك . فهل ترى بإمكان
المرأة أن تتحسس معنى الحياة العائلية أو الانسانية في تلك الأحياء
ففي مجاهل القرون الوسطى لم تلتق المرأة الأوروبية ظروف
حياة كذلك ، هذا مع العلم أن المرأة الجزائرية تتقن الحياطة
والتطريز . واستثمار عملهن لا يقل مطلقاً عن ظروف حياتهن
بؤساً وحرماناً . فهن يعملن منذ الصباح الباكر حتى المساء بأجور
لا تتعدى الخمسة أو الستة فرنكات في اليوم ؟

وفي مئة وثلاثين سنة لم يضع الاوروبيون اي تشريع لحماية
العمل النسائي او أية نقابة ترفع ذلك الحيف والاستغلال البربري .
فكم سمعت مرة من اوروبيي الجزائر تلك العبارة المؤلمة : «انهم
سعداء كذلك ففرنك واحد في اليوم يكفيهم » . ولكن
فليذكروا ان ما يقولونه عن تعساء الجزائر قاله قبلهم
أوستوقراطيوطر سبرج ، فسحقهم ثورة أكتوبر ! ان النساء
الجزائريات يعرفن جيداً ما قيمة المال ، ولكي يكن «سعيدات
حقاً» يجب رفع مستوى معيشتهم ، هذا مع العلم أن أولئك
النسوة محظوظات بالنسبة لسواهن إذ يستطعن أن يلقن بناتهن
مهنة الحياطة لكي يضمن حياتهن ! وأنا لا أستطيع ان أقدم
للقاريء لوحة أكثر صدقاً من تلك التي رسمها أحد الكتاب

العرب في بعض كتبه عن أولئك الحياطات المسلمات الجزائريات،
بتصويره بأسلوب خلاب حياة أرملة هي أم ثلاثة أولاد، تعمل
أربع عشرة ساعة في اليوم مقابل أجر طفيف للغاية.
إن آخر مجموعة من نساء المدن الجزائريات فئة من الصبايا
اللواتي تمكن من التثقف أو من اللواتي يرسلهن آباؤهن برضاهم
لمتابعة دروسهن. وفي صفوف الطالبات أيضاً قل ما تجد ألفة أو
تقارباً بين المسلمات والأوروبيات. وتبعية ذلك تقع على الفتيين
معاً. فليس الوضع الطبقي الذي يفرق بين الطالبات، بل التزاحم
المدرسي وعقدة التفوق الحاطة التي تتشدد بها أو تعمل بموجبها
الأوروبيات حيال المسلمات. هذا مع أن العربيات يظهرن ارادة
عجيبة في التعلم والتثقف.

ثم إن أولئك الطالبات الجزائريات يعين انه لا يترب عليهن
مجرد النجاح في امتحاناتهن، بل القيام بواجب اجتماعي وسياسي
حيال أربعة ملايين جزائرية ينتظرن منهن قيادة جبهة تطورهن.
فقد انصرف أولئك الطالبات في أوقات فراغهن الى تأسيس
الحركات الكشفية النسائية المسماة، كما تطوعن مراراً للاكتساب
كمبرضات من أجل خدمة المرضى الجزائريين الفقراء.

وهذا لا يعني مطلقاً ان جميع الطالبات الجزائريات يعين
دورهن كمنقذات، فالعديدات من بينهن، على أثر معاشرتهن
للفتيات الاوروبيات الطائشات، وعلى أثر قراءتهن للكتب الرخيصة
او حضورهن للأفلام السينمائية الخلاعية، توجهن أهواء وميول
أفانية هي أبعد ما تكون عن روح التضحية المفروضة فيهن.

فأولئك الفتيات اللواتي يصرفن كل همهن في تقليد الأوروبيات
لكيما يتمكن من الحياة حرات، واللواتي يمتنعن عن إنجاب
الأطفال لكي لا يتعرفن الى التضحية، هن بحاجة الى التوجيه
لأنهن يشكلن خطراً كبيراً على مستقبل الأجيال الجزائرية
الطالعة.

فانتقلهن من النقيض الى النقيض بتلك السرعة، وردة الفعل،
يسيثان الى مصير الجزائريات بشكل أكيد. فهن لا يملكن،
كالأوروبيات أمهات متعلات ينصحن إليهن ويرشدنهن. فالتربية
التي تلقينها وهن صغيرات لا تؤهلن مطلقاً لاستعمال حريتهن أو
مواجهتهن كما يجب. ووضعهن يشبه وضع المسافر في الاطلنطيك
على ظهر زورق صغير وحيداً لا حول له ولا طول. وبينهن
وبين آبائهن بون شاسع يهدد بنكسة مريعة إذا ما أمرعن في
«تطورهن» أكثر مما يجب، فالجزائريات اليوم بحاجة الى امرأة
تقرض احترامها على الجميع كالأمية ليلي عائشة في المغرب، وتقود
بنات جنسها الى القيام بواجبهن المقدس في أن يصبحن أمهات
واعيات.

وعلى الرجال أن يفهموا أن دور المرأة، مسلمة كانت أم غير
مسلمة، لا يكمن في مجرد إنجاب الأطفال، ولكن في إعطاء
الطفل مع جسده روحاً تؤهله لحياة كريمة. وطالما أن هذه
الحقيقة لم تفهم بعد من قبل الرجال والنساء، فسيلقى تفتح الجزائر
الفكري والروحي في خطر.

إن حياة المرأة الجزائرية القروية في جبال الأطلس وبلاد الهضاب العالية تختلف تماماً عن حياة ابنة المدينة .

فحياة القرية تفرض هنا، كما هي الحال في سائر بلاد الاسلام، أن تعطى المرأة حرية أكثر . فباستطاعة المرأة ان تذهب من البيت وحدها لأنه يستحيل عليها القيام بالمهام المترتبة عليها بدون ذلك . فعليها أن تذهب لتأتي بالماء من نبع القرية أو بئرها ، وأن تذهب الى سوق القرية لشراء حاجات المنزل ، وأن تحمل في الساعة العاشرة الطعام إلى زوجها الذي يعمل في الحقل أو يروى غنمه في الجبال .

واستعمال القنّاع قد قل تدريجياً لأحد سببين : إما لأنه صعب الاستعمال بالنسبة للقرويات اللواتي عليهن أن يتجوأن في ظروف مناخية غير مؤاتية ، وإما لأن صفاقة ثيابهن تجعلهن لا يطقن القنّاع .

وهذا لا يعني أن الحرية التي تتمتع بها القرويات تجعلهن أحسن حالاً من زميلاتهن بنات المدينة . فحياتهن مريرة قاسية . لهن يسكن بيوتاً من الحجارة المتراكمة المبنية على هضاب صخرية قاحلة تنم عن التعاسة وتبعث الحزن في النفوس .

وساحة القرية الوحيدة هي عادة باحة المسجد، كما أن طرقاتها ضيقة موعرة . وأما المشهد الذي يعتبره الزوار رائعاً حين يرون تلك الفتيات الصغيرات الحافيات يحملن الجرار على رؤوسهن، فما

هو بالواقع ، بالنسبة لأولئك الفتيات ، إلا عمل " شاق " مضني . فالمياه غالباً ما تكون شحيحة نائية تضطر معها الفتيات الى الذهاب والإياب مراراً مدة ساعات طويلة من النهار للحصول على ماء كافٍ .

وعلى المرأة القروية أن تقوم بعمل شاق ثان هو جمع الاحطاب في الجبال تحملها بجهد وعناء على رأسها أو ظهورها . وكمن فتاة لم تتعد السادسة من عمرها تراها تنث تحت حملها الثقيل متعثرة بوعر الطريق قاصدة بيتها البعيد فلا من يرأف بها ولا مدرسة تأويها . إذ ان المناطق القروية ما تزال خالية من المدارس . أما ما تأكله أولئك القرويات فقليل من التين المجفف والحبز والبن . وأزعج ما في حياة القبيلة، ذلك الدخان الذي يملأ البيوت بشكل مستديم لأنه لا يوجد مداخن فيها . وبجمل فرش البيت يحتوي على بعض الارائك البالية والسجاد القدر . واللواتي يملكن حيوانات داجنة يسكنهن في غرفة مجاورة لهن : فالبشر والحيوانات هناك يشكلون عائلة واحدة تسكن تحت سقف واحد .

وليس عمل المنزل ايضاً بالغريب عن أولئك القرويات ، فعليهن إغالة الاطفال الصغار وإشعال النار وطحن الحبوب وصنع الحبز وتحسين الثياب . وإن انتهين من ذلك باكرأ عليهن أن يساعدن أزواجهن في زرع الحقول .

وبالرغم من تلك الظروف الحياتية القاهرة ترى القروية تتقن عدة أعمال يدوية . وليس قصدي هنا إظهار خصائص الشعب الجزائري ، إنما الذي لا بد من ذكره هو مقدرة النسوة

القرويات في العمل اليدوي : فهن يغزلن الصوف ويحكن لأزواجهن « البرنس » ولاولادهن « الجلابية » برشاقة وفن . كما يصنعن لمنازلهن الاواني الفخارية المزركشة . وبعضهن يجدن الحياكة ، وسجاد « افلو » في جبال « عمور » أشهر من أن يعرف . وما كانت هذه الخصائص المادية لتغير شيئاً في حياة المرأة الجزائرية الروحية والدينية . فالعادات التقليدية تتحكم في الجميع متصدية بعنف الى كل محاولة تطور قامت قبل الثورة .

والمشكلة الاولى التي أخذت تتحرك في قلوب جميع أولئك الفتيات القرويات هي حاجتهن الماسة الى الزواج الحر ، والى الحب الحر الذي هو أغلى أمنية بالنسبة للمرأة ، أية كانت !

ولقد عرفت واحدة منهن تركت بيت جدها في بلاد القبائل هاربة لتلتحق بأختها وأهلها في باريس : تعرفت عليها على ظهر المركب الذي نقلنا من الجزائر الى فرنسا . وفي عشية إحدى الليالي ، وبعد سنتين من تعرفي بها ، كنت عائداً الى المنزل أبكر من المعتاد في حوالي الساعة الثامنة . وعندما وصلت الى ضفاف السين واتجهت نحو محطة اورسي شأهت شبحين يتضاربان في ضوء فانوس أصفر . عندها مرت بالقرب منها سيارة فخمة أضاءت حولها ومضت مسرعة فطرشتها بالوحل . وعرفت فيهما على ضوءها صديقين حميين . وعندها تحول فجأة شجارهما الى قبلة طويلة وخيمة حمية أغرقتهما في جسد واحد . ثم مر بالقرب منها شرطيان لم ينتبها لوجودهما ماضيين في قبلة كادت تدوم طويلاً لو لم أنادها قائلاً . « ايه يا جاك ؟ ألن تنتهي قبلتك الليلة ! » فتوقفا . وإذا

عرفاني قدما مني . واستفسرت عن خصامها فقلا : اختصنا في المكان الذي سنقضي فيه ليلتنا ، فأنا أقول عند صديقي وهي تقول في زاوية تحت أحد جسور نهر السين !

وما كانت رفيقته الصبية إلا تلك الجزائرية التي عرفتها على ظهر المركب . وكانت ذات جمال رائع ودم حار لقيت في باريس ما لم تحلم به قط فتاة افريقية : فهي حرة في تصرفها ، حرة في اختيارها الشاب الذي تريد ان تهب له نفسها . ومع انها لم تتجاوز بعد الثامنة عشرة فقد تركت منزل والديها لتلتحق بهذا الشاب الذي تحب وقد رفضت على التوالي مرتين صفح والدها عنها شرط أن ترجع الى منزلها .

كما أن تهديدات أقاربها على سوء سيرتها قد ذهبت جميعها سدى . وهي جد مسرورة مع صديقها جاك مع أنه لا مال لديها ولا أصدقاء ، وحتى ولا ثياب دافئة تقيها لذعات شتاء باريس القارس . اما هو فطالب في علم الاجناس البشرية ترك دروسه لينصرف الى مغامراته تلك . وكانت حبا ، وهو اسم الفتاة ، تشعر مراراً بحب وطنها يتصاعد في صدرها فتفتقد الى شمس بلادها والى حياة قبيلتها المأدبة . وهي تصر بأن تأخذ جاك معها وترجع الى هناك . وقد سمعتها مرة تقول لي عند مرورنا أمام صور للصعراء عرضها مكتب السياحة : « ان أغلى أمنية عندي هي أن أعبّر البحر المتوسط راجعة ومعني جاك » .

وكانا في هذا المساء كما هي حالهما أبداً ، بلا طعام ولا مأوى . فاصطحبتهما معي الى أحد المقاهي الدافئة في الحي اللاتيني لياخذنا بعض

المشروبات الساخنة .

وكان الحي في الخارج يعج بالناس كسائر أحياء باريس ، وفي الطرف الثاني من الشارع كانت تقع مقاهي الـ « بركولا » حيث تلتقي أجمل فتيات الهوى على موائد الطعام الفاخرة . فالبركولا بالنسبة لرواد المقهى الذي نحن فيه حلم عذب يشتهي . وفي هذه الأثناء كان صديقاى العاشقان يحتسيان قهوتهما بهدوء . فشعرت أنها قد ملأت تلك الحياة التي اختارها بملء إرادتها . واستسحنت تلك الساعة لأخير جاك بين حبيبته حبا وبين طاولة فخمة وثياب جديدة وسرير ناعم . فهدق في الشاب بنظرات ملؤها السخرية والدهشة وأجاب : « إن جميع ثروات الأرض لا توازي في نظري حبيبتي حبا » . فارتعشت الفتاة وقبلته على خده قائلة : « برافو جاك ! أنا أيضاً لن أملك أبداً » .

ثم انتقل بنا الحديث الى أشياء وأشياء حتى انتهينا بالكلام عن « فوست » غيتي و « ججيم » دانتى ، وعن باخ والجاز الحديث . وكان الضباب ما يزال مخمياً في الخارج والحرارة في هبوط . ووقفت أتأمل مرة ثانية جاك وحبا يعلق واحدهما بالآخر مجسدين الحب الدنس الحر ، الحب الذي ينسي جميع المصاعب والآلام ومعارك الحياة . ومداً معاً يديهما لوداعي ، وقبل أن أعرض عليها تقديم غرفتي يقضيان فيها ليلتهما كانا قد تواريا بعيداً في إحدى أزقة الحي اللاتيني المقفرة .

وإذا أعلنت الثورة في سنة ١٩٥٤ وأخذت فرق المجاهدين تتكون وتكبر ، انقلبت حياة المرأة الجزائرية القروية رأساً

على عقب . والسبب في ذلك يرجع الى ان ٨٠٪ من أعضاء جبهة التحرير هم من العرب القرويين ، ولأن أكثر المعارك تدور رحاها بين بلاد القبائل وجبال أوراس . كما أن عدم توفر « ليلي عائشة » ثانية أو « أبو رقية » ثاني في الجزائر مع سننها النسائية المتطورة ، قد فتح المجال بعنف أمام الأعمال الثورية .

فقد وجدت القروية الجزائرية التي ألقت الحياة الهادئة الرتيبة والخضوع الدائم لزوجها ، وجدت نفسها أمام تبعات ومهات شاقة قاسية .

فالكثيرات من اللواتي تركهن أزواجهن للالتحاق بجيش التحرير وجدن أنفسهن مضطرات إلى إدارة منزلهن وإعالة أطفالهن بمفردهن . وبالرغم من انعدام الحياة التجارية بسبب الحوادث ، فقد تمكنت أولئك النسوة الأمهات من تدبير شؤون منازلهن ، وفهمن أخيراً أن للمرأة ذكاء كالرجل ، وأن باستطاعتهن القيام بجميع مهامه ، وأن وجوده ليس ضرورياً لتصرف شؤون المنزل كما كنّ يحسبن قبلاً .

ومن بين الجزائريات اللواتي تزوجن تجاراً أو رعاة أغنياء في جهات وهران ومسغارة وبون وفليفيل ، من بعن حتى آخر جوهرة لدين ليعلنَ بثمنها عائلات المجاهدين الذين قتلوا في ساحات الحرب أو الذين اعتقلوا في السجون .

وقد نشأت بين النساء الجزائريات العربيات والبربريات أواصر صداقة نسائية متينة تثبت أن شعب الجزائر العربي شعب حيّ فذ . وهنالك أيضاً قرويات نظمن حياتهن كالرجال لإعالة أطفالهن

بعد أن قتل أزواجهن وآبائهن في ساحة الجهاد .
وباستطاعتي القول بأن حرب الجزائر وسياسة لاكوست فيها
قد طوّرت الفتاة الجزائرية خلال ثلاث سنوات تطويراً لم تبلغه
طوال المئة والثلاثين سنة من سني الاحتلال .

فمئات الفتيات اللواتي ما كنّ يتجرأن أبداً على النظر إلى
الرجال أو على محادثتهم ، زاهن اليوم قد أبدلن ثيابهن التقليدية
بثياب مناضلات جيش التحرير . وهن اليوم يحملن السلاح والذخيرة
ليقتلن بها الأعداء . وكم من مرة خبأن المجاهدين في غرف نومهن
وحملن المراسلات العسكرية في صدورهن وملأن سراويلهن
الفضفاضة بالقنابل اليدوية . وكم مرة حملن الطعام لرجالهن
متسلقات الجبال الوعرة . كما تعلمن بشكل طبيعي عفوي بلسمة
جروح المصابين وتضميدها ومنعها من تخضب أرض جبال الأطلس
الحمراء ، ورضين بالتنقل بين القرى لإبلاغ ذوي القتلى آخر
وغباتهم ، ودخلن ليلاً بغير وجل على الرجال ليلفنهم بقرب مدامه
الشرطة لهم ، وغن مع الرجال في ظل سقف واحد وغطاء واحد
في الخيمات والكهوف والجبال في انتظار معركة أو وضع كمين .
فهل يعقل بعد هذا في حال عودة رجال الثورة إلى بيوتهم
سالمين أن يرجع أولئك النسوة مطيعات كما كنّ ، منصرفات إلى
عملهن الأول بين نبع الماء واسطبل الدواجن ، تحمّر وجوههن
وتخشع أبصارهن لرؤية الرجال ؟ أتراهن سيقبلن بالقيود من
جديد ؟

ومها كانت نتائج مأساة الجزائر السياسية ، فلسوف يذكروا

الرجال حتماً ما قام به نساؤهم من عظيم الفعال ويعملون بموجب
ذلك . سوف يبدلون سيرة حياتهم العائلية ويقبلون عن معاملة
زوجاتهم معاملة السيد للسود .

وأما المرأة من جهتها ، فسوف تلقى بما كسبته من احترام
وحرية ، نصيبها من السعادة الزوجية فتنشئ جيلاً يكون طليعة
الجزائر الجديدة .

النساء الجزائريات الصحراويات

إن وضع المرأة المسلمة الحقوقي ، هو واحد بالنسبة لجميع
المجموعات الإسلامية الجزائرية ، ويقوم في اتباع السنن القرآنية .
بينما حياة المرأة في الشعوب الصحراوية ، وإن كانت تستقي سننها
من القرآن ، كثيرة التنوع كثيرة التجدد .

لن أذكر هنا إلا مثلين من الحياة النسائية عند هذه الشعوب .
مثلين عرفتهما ودرستهما عن كثب : مثل الغاسلة الببرية ، ومثل
المرأة الطارقية في مجار .

١ - الغاسلات الببريات

ففي زيارتي الأولى في سنة ١٩٤٩ للصحراء ، بالرغم من قلة
المعلومات التي جمعتها عن حياة أولئك الببريات المنتديات إلى إحدى
فرق الحوارج ، تبيّنت الفرق الشاسع بين نساء الجزائر ونساء
تلك المدن الموزابية الخمس العجيبة . وميزة الحوارج أولئك عن

صائر المسلمين أنهم ما يزالون حتى اليوم ينكرون حق أية عائلة أو قبيلة في احتكار سلطات الاسلام العليا بواسطة الوراثية ، بالرغم من أن هذا الخلاف كان قد حسم قديماً بين عليّ ابن عم الرسول ومعاوية الأموي. فهم يعتبرون أنه يجب انتخاب خليفة الرسول من بين المؤمنين البارزين ومن قبل جميع المسلمين .

وعدا ذلك فإن حياتهم قد أحيطت دائماً بسنن صارمة ومثالية وروحية فاقنا بكثير تطرّف أية فئة إسلامية أخرى . ومن جهة ثانية فإن بعض عاداتهم تبرز معالم وعي وتفهم وتآخي اجتماعي وحرية فردية وجماعية تأصلت في نفوس أبناء الصحراء أولئك . والنساء بالرغم من كونهن خاضعات أو حتى مستعبدات لتقاليد أخلاقية صارمة ، فهنّ متقدّمات واعيات على طريقتهن . وقد علمت بدهشة أنه لسنوات خلت توفيت في « غاريداي » عاصمة موزاب ذات السبعة أسوار ، امرأة اشتهرت برسالتها الدينية واتساع ثقافتها وحيوية نشاطها .

وقد علّق اسم تلك المرأة ، ماما سليمان ، في تاريخ المجتمعات الموزابية . فأول من حدثني عنها قاضٍ فرنسي عجوز ، وأخبرني أيضاً أن تابعات تلك المرأة الموزابية العجيبة كلهن من غاسلات الأموات ، وأنهن يشكلن جمعية ذات رهبة في المجتمع الموزابي . ورجعت بعد سنتين إلى بلاد الموزاب في خلال رحلتي إلى هجار بلاد الطوارق ، فتبينت أن الروحانية الموزابية تسيطر على جميع مظاهر الحياة اليومية الخاضعة للسنن الدينية . وشعرت أن كل موزابي يعتبر نفسه مسؤولاً عن جميع تصرفات مجتمعه

الأخلاقية . فالمراسيم الدينية التي ترافق دفن الموزابي تحمل كلها معاني واضحة كما أن غسل الميت يعطى أهمية كبرى . فمؤسسة النساء الغاسلات قد أخذت على عاتقها أمر القيام بتلك المهمة الدينية الجليلة . فهن يشكلن رهبانية كاملة ولكن بدون شارات خارجية لأنهن مسلمات . فعليهن ألا يتعلّقن بأي مُلك على الأرض ، وأن يكنّ حرات أي عذارى ، أو مطلقات ، أو أرامل ، وألا يقربن الرجال مطلقاً . وهن لا يتقاضين أي مرتب على عملهن ويعشن من الهبات التي يتكرم عليهن بها المؤمنون .

وخضوعهن لسنة أخلاقية صارمة ونهج ديني قاس يجبر جميع الرجال والنساء الموزابيات على احترامهن وتقديرهن . وعلاوة عن ذلك فإن الرجال يعترفون لهن بجميع الحقوق الاجتماعية كما أنهم ينحنون لهن ولذكور اللواتي توفين منهن انحناءهم لذكر عظماء الاسلام .

فالماما سليمان كانت لسنوات خلت قد اكتسبت سيطرة عجيبة على المجتمع الموزابي بأجمعه . وقد أسست تلك المرأة القديسة في البداية معهداً للفتيات كن يدرسن فيه العلوم الدينية والأخلاقية ويتفهنن ويناقشن بحرية كلية مشاكل الفكر والايان الاساسية كخلاص النفس والثواب والعقاب وسواها . فهي مثال قليل الوجود لامرأة جزائرية تعلمت وثققت على ذاتها من غير أن تألف أي معهد عالٍ للعلوم الاسلامية أو الاوروبية .

وقامت أيضاً بمحاولات قانونية وأخلاقية للتوفيق بين العادات البربرية الموزابية والسنن القرآنية . كما كتبت بيدها مؤلفات

عديدة في العلوم الدينية بالحرف العربي واللغة البربرية ما يزال أكثرها محفوظاً . وكانت تنشئ حلقات ثقافية عديدة في المدن الموزابية تشرح فيها للناس نتائج أبحاثها . كما أنها شديدة التعلق بسنن الخوارج التي هي منهم ، فطالما ذكرت الناس بأن السيرة السيئة والحياة المنافية للأخلاق تستنزلان غضب الله ويعاقب عليهما بالنار في الحياة الآخرة . وكم من مرة رددت على مسامعهم : « ان العدالة الالهية تنال جميع المؤمنين على السواء فبصير الرجال شبيهة تماماً ببصير النساء » .

وكانت أفكارها الدينية تتم عن عمق جدير بكبار العلماء ، فهي تقول في إحدى عظاتها أن الجنة لا تعني مطلقاً ان نفس الصالح فيها مستشهدة بها إذا ان الله روح والروح لا تشاهد . وقد أدركت أن التعليم الديني لا يثمر إلا إذا حدث المؤمنون بلغتهم الأم . وكانت في عظاتها تستعمل الأسلوب الروائي فتسهل على المؤمنين حفظ التاريخ الديني المقدس والسور والآيات القرآنية . وهي مع كونها تجيد العربية ، كانت تكلم المؤمنين بالبربرية وتكتب فيها .

ومن غرائب تعاليم تلك الرسالة المسلمة انها كانت تعميم على جميع المؤمنين كفرض واجب ضرورة إخبار السلطات والمراجع الدينية بكل مخالفة للسنن الاخلاقية والقرآنية يقوم بها أحد معارفهم . بينما في جميع البلاد الاسلامية الأخرى لم يفرض هذا الواجب إلا بالرجال وحدهم لأن النساء لا يحق لهن الاتهام او الشهادة . ففي هذا التشريع تظهر عظمة النهضة التي قامت بها

تلك الغاسلة . فهي لم تكتف بأن تعمم على النساء واجباتهن وحقوقهن ، بل نصبت نفسها ورفيقاتها محكمة دينية عليها لها قوة قانونية فعلية . فكانت تلك المحكمة المؤلفة من النساء فقط تحاكم وتدين الرجال والنساء دون أي تمييز .

وقد قام في المدن الموزابية سباق عجيب الى فضح المنكرات . وما كان النساء لتفوتن فرصة واحدة تسمح لهن بأن يخبرن فيها « الماما سليمان » عن مخالفات هذه او مخالفات ذاك . كما كن يذهبن ايضاً الى الذي وشين به ينصحنه بالمشول من تلقاء نفسه أمام محكمة الغاسلات حيث يقر بخطأه ويطلب السماح .

وسبب ذاك الخضوع الجماعي للمحكمة يرجع الى السلاح الرهيب الذي تتمتع به فإذا تورد مجرم عوقب بالدفن بدون غسل . وما كان ذلك إلا بمقدور الغاسلات ، وواضح أنه ليس لهذا السلاح إلا حد واحد . فعوضاً عن ان يحمل المجرم نفسه عبء الحرم ، كان يطلب السماح ويخضع للعقاب الذي تفرضه عليه « الماما سليمان » حتى وإن كان سيضطره ذلك الى الخضوع للنساء وتحمل الاهانة أمام مجتمعه . فالخوف من المشول يوماً أمام هذه المحكمة والموت بدون تطهير وغسل ، كافا يضعان حداً للميول الجاححة والغرائز المستعصية .

وقد رأت الماما سليمان وزميلاتها ان يجمعن في نصوص القوانين المدنية والاخلاقية المتعلقة بالخطايا الرئيسية . ومهمة تلك النصوص التي جمعت في كراس كانت تسهيل حياة المؤمنين لكيما يسيروا على ضوء ، مراعية بذلك عقليتهم وتقاليدهم وعاداتهم الفردية

والجماعية ، متعددة النصوص الدينية . كما كانت مهمته أيضاً جمع القواعد التقليدية في نصوص تتفق والشرعة الاسلامية .

والجرائم التي عددها ذلك الكرّاس النسائي الموزايي عديدة وبعضها غريب . وهي تمثل قانوناً فريداً في نوعه وضعته نساء وطبقته نساء يتمتعن بسلطة تنفيذية تفوق سلطات القضاة الرسميين من الرجال .

وقد نشر الباحث الاجتماعي « كواشو » في سنة ١٩٢٤ الترجمة الحرفية لتلك النصوص النسائية الموزابية وإليك بعضها :
لقد حظر على المؤمنات :

« ارتداء ثياب من طراز فرنسي وانتعال أحذية كتلك التي تستعملها النساء الغربيات » .

« التزين بكثير من الحلى كأن يلبسن مثلاً أربعة عقود أو كأن يضعن أحدها بالقرب من صدرهن ، إذ لا يجوز ان يلمس العقد إلا جلد العنق » .

« الخروج من البيت بالحلى (المقصود هنا الفتيات فقط) » .

« ان يتزين بالحلى في بيوتهن عند غياب بعولهن » .

« ان يخرجن حافيات الى الشوارع » .

« عدم تغطية جميع ملابسهن بالقناع » .

« ان يوسمن على أجسادهن ، كالنساء العربيات نقوشاً . إذ

لا يسمح للموزابيات إلا ببعض الرسوم المفروضة عليهن تطبع بلون الحنة » .

« ان يلبسن الاقراط كالنساء العربيات » .

« أن يقصن من شعرهن ما يجب ان يغطي الجبهة بكاملها .
« ان يصفقن شعرهن بشكل يظهر فيه صليب على رؤوسهن » .

« ان يدعن شعرهن خارج قناع الصلاة الذي يجب على الفتيات لبسه فوق قناع الثياب » .

« ان يُظهرن أيديهن أمام بائع عند شراء شيء ما ، إذ عليهن ان يغطين أيديهن بقناعهن » .

« ألا يتقنعن او يخرجن عند دخول حميهن » .

« ان يتركن أعمالهن لسماع رجال يضربون على آلات موسيقية » .

« ان ييكنن مجلبة على الاموات إذ يفرض بالموزوبيات التألم بصمت » .

« ان يرفعن صوتهن في مناقشة أحد أو مناداته فالمنادة تحصل بالتصفيق » .

« محادثة رفيقة لمن على السطح ، او الضحك بصوت مرتفع » .

« ان يدعين رفيقاتهن لشرب الشاي عندهن لأن في ذلك تذكيراً » .

« الاساءة بالحديث او الكلام الى الغير » .

« ان يعطين ولدأ يقل عمره عن السنة مرآة ، لأنه يكون ما يزال ملاكاً وعليه ألا يرى وجهه » .

« ان يدخلن الى بيوت الحلاء أطفالاً لا أسنان لهم بعد » .

كما حظر أيضاً :

« على الفتاة ان تقضي نهارها في الشارع » .

« على الأرملة ان تدع ابنها يشترك في لعب الصاحب

والاعباد » .

« على الفتاة والأرملة والمرأة المتزوجة مخالطة النساء

العاهرات » .

« على الأزواج المطلقين ان يرجعوا الى حياتهم الزوجية من

غير معاملات رسمية أمام القاضي والشهود تحت طائلة العقاب

الفوري » .

« عدم الاعلان عند الاصابة بالسفلس لان في ذلك تهديداً

للقريب » .

لكن سلطة الغاسلات العجيبة تلك قد اضمحلت بعد وفاة

« الماما سليمان » . فتلميذاتها النشيطات اللواتي تابعن رسالتها بعزم

وأبن عددهن يقل شيئاً فشيئاً ونفوذهن يتقلص فلم تعد تشير

حياتهن إلا الاحترام الادبي بين المؤمنين . ولكن بما لا شك فيه

ان ما جاءت به تلك البربرية المتصوفة من إصلاح وتجديد سوف

يظل محترماً .

٢ - المرأة الطارقة

تقع جبال الهجار الخيفة على بعد مئات الكيلومترات من

أقرب مركز للحياة ، بعيدة عن الواحات الجميلة حيث المياه العذبة

والنخيل الظليل . وهي عبارة عن كتل من الصخر الأسود

والرؤوس المسننة والقمم الشاهقة والفجوات العميقة المحرقة .

ففي تلك الجبال يعتصم شعب مدينته عجيبة غير أنها وبالأأسف

في طريق الزوال ، هو شعب الطوارق الذي بلغتنا عنه أخبار

أسطورية . وهو يحتمي في تلك الجبال التي طالما ردت عنه الغزوات

في التاريخ وحمته من الاوروبيين في العصر الحديث . إن حياة

هذا الشعب ما تزال خاضعة للتقاليد البربرية القديمة رغم كونه

اهتدى الى الاسلام ، وما يزال يتكلم اللغة البربرية الفصحى .

لقد لقيت عند شعب الطوارق مظاهر حياة نسائية غريبة عن جميع

المجتمعات الاسلامية الاخرى .

ولكي يفهم دور المرأة في مجتمعات الطوارق الصحراوية ،

تجدر الإشارة إلى اسطورة تشترك في الاعتقاد فيها جميع قبائل

الطوارق ، وخلاصتها ان هذا الشعب ينحدر من امرأة شريفة

تدعى « تين هينام » ومن بطلة جاءت من « فزان » (ولربما قصد

بهذه الاخيرة الاميرة لمتونا) . وقد حاك القصاصون الروايات

الطويلة حول تلك الاساطير البدائية خالقين منها شخصيات نسائية

أسطورية فذة .

فبخلاف ما يجري عند كل الشعوب المسلمة لا يعتبر الطارقي

نفسه أرفع مقاماً من المرأة بل هو على العكس يكن لها احتراماً

عميقاً . وهي أكثر النساء المسلمات تحرواً حتى أنها تكاد تكون

أوسع حرية من المرأة الاوروبية . فالرجل لا يتزوجها كوسيلة

للمتعة بل ليؤسس معها ، محاطة بكل حب واحترام ، بيتاً هادئاً .

والبرهان على ذلك ان الرجل ينقطع عن زوجته بعد وضعها

أربعين يوماً ، وعند عودته يحمل إليها الثياب والنعال والحلى
تكريماً لوظيفتها الجديدة كأم ، إذ ان الطارقي يقدس الأمومة .
وتربية الأولاد الذكور والاناث من خصائص الأم ، وذلك لأن
النساء أوسع ثقافة من الرجال عادة . فجميع النساء الطوارق
يحسن القراءة والكتابة « التيفيناغية » لغة الشعب الأصلية التي
بالت غير مستعملة إلا عند الطوارق . أما الرجال فيحسنون
عادة القراءة بالعربية ، او البربرية المكتوبة بالعربية . فالنساء
إذن هن حاملات اللغة الأصلية وناقلاتها عبر الأجيال .

ويشعر المرء عند مراقبته للنساء الطارقيات بأنهن أكثر وعياً
وأعمق فطنة من الرجال . فالرجال ملثمون دائماً والنساء سافرات .
وباستطاعتي ان أؤكد للقارئ أني خلال رحلتي الى بلاد الطوارق
لم أرَ وجه رجل قط بينما حدثت نساء كثيرات وقاربتهن .

والمفاجأة تلي المفاجأة في تلك المجتمعات الصحراوية . فالفتيات
يتمتعن بجميع المكاسب والميزات التي يتمتع بها الرجال في البلدان
الاسلامية الأخرى . وتعطى الفتاة تربيتها عناية خاصة إذ تلقن بأناة
وصبر معلومات نظرية وتطبيقية عديدة ، فتعطى أولاً دروساً في
الطهي وعلم النبات الصحراوي لكيما تتمكن من معرفة الحشائش
الطبية وجمعها ، ثم تعلم الحياطة والرتي والغزل وشغل الجلد ونصب
الحيام وتصفيف شعر الرجال والنساء . وعندما تكبر تولى ثقافتها
عناية أكثر . فتعلمها أمها قراءة وكتابة التيفيناغية وتحفظها القرآن
والصاوات وتدرسها الأشعار والقصص ، ثم تعلمها حرفة باللغة
الأهمية في تلك المجتمعات ألا وهي حسن الضرب على الرباب ذي

الوتر الواحد .

وهذه الآلة الموسيقية تشكل أمضى سلاح في يد المرأة
الطارقية . فبواسطتها تستطيع المرأة ان تجعل نفسها محبوبة
مشتهاة مسموعة مرعية بالعطف والتودد ، وهي بواسطتها تتوصل
وتعاقب . فالزوج أو العاشق الذي يسيء التصرف في أمر ما ،
يقضي نهاره جزعاً من ان تحرمه زوجته او حبيبته عند رجوعه
إليها مساءً من نغمت ربابتها المسكرة . كما ان أمه في ان يسمع
تلك النغمت السحرية يزيد في شجاعته ويجعله مهذباً ليناً في علاقته
مع النساء . ترى إلى أي حد تؤثر الموسيقى في نفس أولئك
البدائيين الذين نطلق عليهم اسم « غزاة الصحراء » .

ويقيم عادة والد الفتاة عندما تبلغ ابنته سن النضج وليمة على
شرفها ويقدم لها فيها أول وداء صبية قلبسه .

*

إن جميع العلاقات الزوجية في الحيمة الطارقية تسودها الحرية
الفردية والاحترام والعطف المتبادلان ، الأمر الذي يسبغ على
العائلة الطارقية وجهاً تبدو به أدنى الى العائلة الأوروبية منها إلى
العائلة الأفريقية . وهناك فرق جوهري آخر بين مدينة الصحراء
ومدينة الشاطئ يكمن في رسوخ التقاليد وتعدد البيئات في
الأولى .

ومن أهم ميزات المرأة الطارقية أنها تعطى الحق في اختيار
وفيق حياتها بحرية ، كما يحق لها أيضاً ان تلتقي بالرجل وتحدثه
وتعرفه معرفة تامة قبل الزواج منه . وباستطاعة النساء الطارقيات

ايضاً ان يهجرن أزواجهن ويطلبن الطلاق منهم . ويكفي المرأة الطارقة ان تتهم زوجها بسوء المعاملة او سوء السيرة ، او بتخلقه عن اداء المهر ، لكي تتحرر من قيودها الزوجية .

والمجتمع الطارقي يعترف بعدم الانسجام في الاطباع كعذر موجب للطلاق (والجدير بالذكر ان القانون الفرنسي نفسه لا ينص بعد على ذلك) .

ويجب الاقرار بأن الطوارق قد تمادوا في الاستفادة من هذا العذر إذ كثيراً ما يفسخ الزواج لمجرد رغبة المرأة في ذلك وبالرغم من إرادة زوجها . وما اكتفت النسوة الطارقيات بذلك بل تذرعن لكي ينجبن من انتظار مدة الاشهر الثلاثة التي يفرضها القرآن ، ببعض المعتقدات الشعبية السهلة التطبيق ، فيذهبن إلى جذع شجرة مسكونة ، على حد زعمهن ، بروح خيرة ، فيقدمن عندها بعض الهدايا ويرجعن مطمئنات الى ان الجن الخير سيتولى بنفسه الامتناع مدة الاشهر الثلاثة أشهر عوضاً عنهن .

ومن عادات الطوارق المميّزة ايضاً واحدة هي أوضح دلالة على تحرر المرأة الاجتماعي عند تلك الشعوب . وما أريده في هذا المجال هو التحدث عن تلك السهرات أو « الآهال » التي تحييها النساء الطليقات من كل قيد ، والتي تقام في كل مساء حيث تقام حلبات الغناء والطرب والمباريات الشعرية بحضور الشباب من كلا الجنسين . ومنذ اليوم الذي يدعى فيه الشاب الى حضور « الآهال » يبدأ باعتبار نفسه رجلاً كاملاً . فهو مستعد لأن يقدم كل ما يطلب منه من تضييحات في سبيل الحضور ، وهو على أتم

الاستعداد لأن ينازل بفردته جيشاً كاملاً من الأوروبيين كي لا يحسب « الأخير » بين الحضور ، أو لكي يثير اهتمام إحدى المغنيات . وما « الآهال » هذه إلا من بقايا التقاليد الجاهلية القديمة التي صمدت في وجه الحياة الاسلامية الجديدة .

والطارقية تحب الاغراء وهي كثيرة العناية بمظهرها وذات ذوق استاقي متفتح . فتعال معي نراقب فتاة طارقة تتأهب لحضور « الآهال » .

إنها لا ترتدي السراويل كالعربيات بل تربط حول خصرها فستاناً أبيض طويلاً مطرزاً على جنباته بألوان حية ، هذا إذا لم ترقد الغندورة الطويلة التي تغطي الجسد بكامله . ثم تنتقل الصنادل الجلدية الشبيهة بالتي كان ينتعلها الرومان . وبعدها تنتقل إلى تزيين وجهها ، فتصبغه بالمساحيق وتضع على شفتيها مسحوقاً أزرق جميلاً وتكحل عينيها بما يعطيها سحراً أكيداً . ويأتي بعد ذلك دور تصفيف الشعر الذي يقتضي عناية ومجهوداً كبيرين . فبعد فركه بالرمال أو بالرماد لكي يصبح براقاً ، تدهنه بالزيت فيلمع ، وتسرح بعد ذلك المشط فيه ، وترتبه خصلاً خصلاً تجمعها بشكل فني وتكلمل بها رأسها . وفي بعض القبائل تلبس النسوة على رؤوسهن مناديل ملونة تستبدل أحياناً بقبعات كبيرة من القش تمنع عنهن حر الشمس اللاذع .

والطارقيات يتحلين بالفضة لا بالذهب فتراهن من أقلتهن شأناً « الأمراد » الى أرفعهن « الاميار » يتزينن بالأقراط والأساور والعقود الفضية . وسبب عدم استعمالهن للذهب حسب قول العالم

هنري لوت هو اعتقادهن بأن الذهب معدن لعين يحمل معه
المفاسد والشؤم .

وبين الحلى التي تتناقضها البنات عن أمهاتهن عقد من طراز واحد
تحمله جميع فتيات الطوارق ، وهو عبارة عن سلسلة من الفضة
المزركشة علق به تاجان أحدهما من الزجاج الملون بالأزرق
والأسود والأخضر وثانيهما يتألف من مجموعة قطع فضية تحيط
بقطعة كروية من العاج .

وتحمل الطارقيات عادة في أعناقهن تعاويذ تحمين من
الأرواح الشريرة وتحمل لمن السعادة ، يضاف إليها كيس صغير
من الجلد يحمل فيه المقصات الصغيرة وأدوات الزينة والمرايات
وبعض التبغ وقليل من المال .

وبعد كل هذا التبرج يحين بفتاتنا وقت الذهاب الى « الآهال »
الذي يقام عادة في إحدى الخيام بعيداً عن الأهل والمشايع .
والفتاة التي تحضر « الآهال » تستعين بصديقة لها تكبرها سنّاً
فتكفلها أمر الاشراف على الحفل ومهمة تهدئة العواطف والحواطر
في حال هيجانها .

ويأتي الشبان عادة إلى « الآهال » سيراً على الأقدام مرتدين
أجمل ثيابهم متنطقين بالأسلحة ذات المقابض المزركشة . وأما
شبان القبائل النائية الذين يريدون حضور « آهال » اشتهرت
صاحبتهم بحسن جلالها أو بريق إنشادها ، فكانوا يأتون على ظهور
الجمال قاطعين المسافات الطويلة عبر الصحراء وزادهم الوحيد قليل
من التمر وكثير من الأمل .

وفي داخل خيام « الآهال » تجلس الفتيات على أرائك من
السجاد ملقيات بقرين آلات الطرب . ويجلس الشبان حولهن
متكئين على أرجلهم ورؤوسهم بمدودة حتى موازاة صدور
المطربات لكي يسمعون موسيقاهن عن قرب ويداعبوا بأنظارهم
النهمة صدورهن البديعة .

وقد ينصرف البعض منهم إلى نظم الأشعار وإهدائها إلى
صديقاتهم اللواتي بقرينهم . بينما يتم آخرون بمراقبة الذين يرون
فيهم مزاحماً لكيما يتذكروا سيئاتهم ويفضحهم أمام حسناتهم !
والغريب في تلك المباريات الكلامية أنها تقسح المجال أمام
الرجال للتراشق بشتى التهم والشتائم من غير أن يؤدي ذلك إلى
شجار أو حتى إلى حقد في النفوس . ذلك لأن قاعدة اللعب تلك
قد ارضاهها الجميع وتقبلوها برحابة صدر ، ولأن خسارة المعركة
الكلامية ما كانت لتؤثر مطلقاً في وضع المتبارزين أو لتقلل من
شانهم .

والذين من بينهم يسيئون التصرف كأن يتبذّلوا في أجوبتهم
أو يرفعوا أصواتهم عالياً كانوا يمنعون من حضور « الآهالات »
القادمة . وعلى كل حال ، فإن باستطاعة المشرفة على الحفل ان
تنزل عقاباً بكل من يعكر صفو الحفل او يتجاهل أصول الآداب
المتبعة في « الآهالات » . والفتيات ، من قبلهن ، يخلقن بموسيقاهن
السحرية جواً ملائماً من الانشراح والفرح . وغالباً ما يواكب
الشبان بصرخات ال « يويو » وتصفيقهم الجاسي وأصواتهم الخافتة ،
عزف المطربات ، أو تراهم يقاطعون العزف بالضحك والفكاهات

والثناء على الفتيات . وإذا ما التهب الجو رأيت الشبان يطلقون السراح لعواطفهم فينشد كل منهم ما نظمه من شعر وأبيات حملوها معاني غرامية محاولين باستعمالهم لبعض الأوصاف الجسدية تعريف الحسنة التي يهدون إليها شعرهم بدون أن يسموها أو يعرفوا بها مباشرة .

ومع تقدم الليل تنسى سكرات الطرب والخطابة لتحل محلها لذات الحب . فنظراً لما يتمتعون به من حرية ، ليست القبلات أقصى شيء يمكنهم تبادله . فالعاشقان الطارقان لا يكتفيان في اظهار حبهما بأن يقبل واحدما الآخر على طريقتهم الخاصة ، كأن يحكوا أنفهم بعضها ببعض ، بل يمضون أبعد من ذلك كأن يضم الشاب حسنة الى صدره ويقبلها ويدغدغ بيديه مفاتيح جسدها ، واذ تجتمع بهم الرغبة تراهم يتركون « الآهال » حيث يمضون أزواجاً أزواجاً الى منعطف طريق أو الى جنب صخرة أو الى كهف قريب .

فالمرأة الطارقية سهلة المنال بقدر ما تملك من حرية اذ انه ما من رقيب عليها ولا عدول لها في علاقاتها مع الرجل .

وعلاقات الفتاة الجنسية تلك لا تضير مطلقاً بعلاقات الأمومة إذ أن زوج الفتاة غالباً ما يكون أحد عشاقها القدامى فتتحول هي عند زواجها به الى زوجة مثالية في وفائها وأمانتها الزوجية . غير أنه في أعقاب السيرة الاخلاقية تلك ، تثار مشاكل مقلقة كمشكلة الأولاد غير الشرعيين . وتقاديباً لتلك المشكلة نرى

الطوارق متساحين في الأجهاض وقتل الاطفال . فالفتاة الأم تلجأ الى كهان القبائل ليساعدها في التخلص من حملها فتدفع لهم بسخاء مقابل اعطائهم إياها بعضاً من الحشائش الصحراوية المجهضة . أما قتل الاطفال فيجري عادة بطريقة الخنق ، فالفتاة الأم بعد وضعها الطفل في خيمة والديها تحمله الى الصحراء حيث تحمد أنفاسه وتواريه التراب .

هذا ، ولا يجب الاعتقاد بأن « الآهال » كما يخيل لأول وهلة مكان لقاء تمثل فيه مهازل عاطفية وقحة . فجو الآهال جو نديّ بالمشاعر الرقيقة المتدفقة من الروح الطارقية التي تغمره والتي تبرز بوضوح في القصائد التي تلقى فيه والاغاني التي تنشده . وهذا لا يعني ان تلك القصائد والاغاني هي روائع فنية . لكن ما أريد ان أظهره هو أن تلك العفوية في النفس تقرّبها من الواقع بشكل يثير اهتمام الباحث الاجتماعي . وقد بعثت أحاديث قلوب أولئك النساء العذبة ، الحياة لأجيال طويلة في ليالي الصحراء المثقلة بالصمت والرهبة .

وبما يؤسف له انه لم يترجم من ذاك الادب الطارقي إلا النزر القليل مع ان شيئاً من ذلك كان بوسعه ان يعمّق معرفتنا لذاك الشعب الشاعر .

وكثيراً ما أولى المهتمون بالشؤون الافريقية اهتمامهم لمظاهر حياة تلك الشعوب متجاهلين جوهر حياتهم النفسية والروحية . فإنه لما يبعث الأسمى في النفس ان نرى الانسان الحديث يتقدم بآلياته وتكنيكه شيئاً فشيئاً من قلب الصحراء . ولن يستطيع

الطوارق الحرب منه مهما حاولوا الى ذلك سيلاً . ومنذ اليوم
اختلط صدى الغناء والموسيقى بقرعقات آلات البترول الضخمة .
وحشجة صوت تلك المدينة المندثرة لم تحط حتى الآن بمرسل
كشارل دي فوكو ليلتقطها وينقلها للعالم فيغني بها تراث البشرية
الروحي . وأصعب ما في الأمر أن كل آداب الطوارق شفوية
تتناقلها الاجيال بعضها عن بعض بواسطة « الآهالات » .

لن أتكلم عن العديد من الاشعار التي نظمت في الإشادة
بمآثر الابطال في الحروب ، او لتظهر شجاعة وطول أناة جمل ،
ولا عن تلك الاساطير الملحمية الوجدانية حيث الحبيب المخدوع
اليأس وشتى المواضيع المحبة الى قلوب البدو والتي تثار في كل
يوم . فالنساء وحدهن يحملن هذا التراث الادبي الرائع وينقلنه
عبرا الاجيال ، إذ أنهن المحدثات الوحيدات عن مشاعر شعوب
الصحراء .

وقد يدهش المرء لتلك القصائد التي تتغنى بالطبيعة والنجوم
والحيوانات والالوان ، أي بكل عناصر المحيط الصحراوي حيث
يعيش الطوارق، غناءً مليئاً بالصور الخيالية والتصاویر الشعرية
والألفاظ المعبرة . فقمم جبال هجار ومياه الينابيع والآبار التي
تشكل جوهر حياة الطوارق ، والغزلان وبنات آوى التي
تقاسمهم الصحراء ، والجبال أولئك الأصدقاء الأوفياء ، وتلك
الشجيرات القليلة المبعثرة هنا وهناك ، جميعها تحمل في شعر
الطوارق أسماء ووجوهاً وقلوباً وحكايات .

وخيال أولئك الفتيات الشاعرات قد حول قحط الصحراء الى

مروج خيالية فكأنها في أعينهن جنان عدن . لكن الحب يبقى
بالرغم من كل ذلك مصدر الإلهام الأول عند أولئك الشاعرات
فتدقق مشاعرهن شلالات من القصائد العذبة والعتاب الجميل
والاحلام الدافئة .

وها أنا اليوم ازداد إيماناً بأن مشاعر قلب الانسان هي واحدة
في كل مكان ، وأن جمالها لا شك أبدي . ففي خلال إقامتي بين
الطوارق في سنة ١٩٥٢ سمعت من الشعر ما حملني الى جو معطر
بكل أحلام الجمال ، وكل خفقات القلوب ، وكل جنات الارض ،
ولا سيما ذلك الشعر الذي تنظمه الفتيات العاشقات ، او شاعرات
الصحراء اللاهبة !

الموأة التونسية

إن الحركة النسائية في تونس ظاهرة جديدة وافقت النضال
الوطني الاستقلالي منذ نشأتها . وان كان الحزب الدستوري الجديد
قد ساهم فعلياً في خلق الظروف المناسبة لانتشار النضال ، فالمجتمع
التونسي ونفسية الشعب بتونس كانا يشكلان حقلاً أخصب من
مراكش والجزائر لتقبل الأفكار الجديدة ونشرها .

فبالواقع كانت تونس وما تزال ملتقى أمثل لجميع التيارات
الفكرية التي اجتاحت بلاد البحر المتوسط بفضل موقعها كمر
إجباري لجميع اتصالات الشرق بالغرب وجميع غزوات البحر
المتوسط ، وقد أظهرت أتم الاستعداد لاهياء تراثها الشرقي والغربي

معاً جاعلة من نفسها جسر عبور بين ماضي عزلة ومستقبل
انفتاح. ولهذا السبب لم تقم الحركة النسائية التونسية على اكتاف
شخصيات فريدة فذة وإنما قام بها جيش من النساء اللواتي قدن
بأقل من سنة الى نصر أكيد .

وانتزع المرأة التونسية جميع حقوقها مع نهاية الوصاية على
علي تونس تشجعها في ذلك السلطات الرسمية، الأمر الذي لم يحصل
له مثيل في أي بلد مسلم من بلدان شمالي أفريقيا والشرق
الأوسط . وكانت النسوة التونسيات مطمئنات الى تأييد عناصر
القيادة الرجالية لهضتهن ، فأرسلن في سنة ١٩٥٥ في جريدتهن
« الإلهام » استفتاء الى جميع شخصيات تونس الوطنية يستوضحن
بها آراءهم في نهضتهن ، فكانت جميع الأجوبة ايجابية مشجعة .
فتصرحات أمين سر المكتب السياسي في حزب الدستور ،
وأمين سر اتحاد المزارعين التونسيين ، وأمين سر الاتحاد التونسي
للصناعة والتجارة ، قد لاقت تأييداً شاملاً في أوساط الشعب
التونسي الفتى . وأكدت تلك التصريحات على وجوب تحرير
المرأة من قيود التقاليد لكي تتحمل في المستقبل التبعات المهمة
التي تقع على عاتقها حيال المجتمع التونسي . واذا اعترف بضرورة
المرأة لإنهاض الوطن وضرورة مشاركتها في الحياة الاقتصادية من
أجل الخير العام ، دعيت الفتيات لانتقاء المهن العلمية والعمل في
جميع مظاهر الحياة الادارية والصناعية والتجارية .

وقد حاول صوت واحد ان يحد من جموح ذاك الحماس
الثوري ، هو صوت « عالم » نصح المرأة ، مع اعترافه لها بدور

رئيسي في إنهاض الأمة ، بالألا تتعد عن مهماتها المنزلية منجرفة
بالمظاهر الخارجية البراقة التي تشكل خطراً على حياتها الاخلاقية
والدينية ، لأنها ، على حد قوله ، لن تستطيع مطلقاً ان تساوي
الرجال في مجال نبوغهم واختصاصهم . غير ان هذا العالم لم يتجرأ
على التطرف كما فعل علماء الازهر قبل ذلك بثلاث سنوات .
فظروف تونس تختلف عن ظروف مصر !

وفي مجلة عربية ثانية « الفكر » تناولت إحدى الفتيات بحث
موضوع جد خطير ألا وهو موضوع شخصية الفتاة . فساهمت
تلك البحوث في توعية التونسيين الذين كانوا ينكرون تلك الشخصية
مستندين في ذلك الى تفسيرات مغرضة خاطئة للآيات الدينية ،
مصرين على ان لا يروا في المرأة إلا أداة للتسلية وإنجاب
الاطفال .

واستمرت المرأة التونسية في نضالها تزداد قوة يوماً بعد يوم ،
فقامت امرأة متحررة تدعى السيدة بلاغ على رأس الاتحاد
النسائي التونسي لتعطيه معنويات أشبه بتلك التي يتمتع بها حزب
الدستور . كما تابعت إحدى طالبات الصيدلة في صفحة نسائية
بجريدة « العمل » لسان حال الحزب الدستوري ، الحملة التي
قامت بها مجلة « الإلهام » ، فكتبت مقالات عديدة نشرتها بتوقيع
« ليلي » المستعار - إذ أن اسمها الحقيقي هو « درة ابو زيد » -
تحدثت فيها عن تطور المرأة التونسية . وهي ما تزال بمجولة من
أكثر الباحثين الاجتماعيين في اوروبا . أما الأكيد فإنها بتوقد
ذهنها وسهولة عبارتها وقوة حجتها ستبلغ منزلة مرموقة . وفي ٢٦

أيلول سنة ١٩٥٥ أظهرت تلك الفتاة معرفة عميقة بمشاكل الأمومة حين قالت : « ان تربية الولد حتى سن الرجولة تعدّ نشاطاً اقتصادياً يوازي العمل في المصنع او المكتب من حيث الأهمية ، لأن الولد يتعلم ان يشعر ويتكلم ويفكر بجوار أمه ، ولأن حياته كلها ستبقى متأثرة بتلك التربية الاولى . فمن مثل الأم المثقفة يستطيع ان ينهض بأخلاقيات أمة ؟ »
و كتبت بعد ذلك محادثة كيفية وجوب تحرّر المرأة .
قالت :

« إن جماهير نساءنا باستثناء بعض بنات المدن قحيا بعيدة عن كل تقدم او رقي ... إني لأطلب إليكم ، يا من ستحملون عبء قيادة هذا الشعب ، أن تفرضوا على المرأة العمل إلى جانب الرجل لأنه ما من نهضة بدونها . فعلى المرأة ، لكي تجيد دورها كام ومربية ، ان تتعرف أولاً إلى أصول الحياة الاساسية البدائية . ويجب ان تولى العناية بجميع النساء من بنات المدن والقرويات . وإذا كان التحرر السريع يلاقي صعوبات في بعض المناطق فيجب العمل على تطوير المرأة التونسية بأنأة وصبر شيئاً فشيئاً حتى لا تشعر بأية صدمة .

ومن واجبات النهضة الحديثة ان تعمل في جميع طبقات الشعب إذ ان الاعتناء بقلّة من النخبة لا يؤدي إلا الى فقدان التوازن الاجتماعي . فعلى شباب وفتيات تونس ان يكونوا في مستوى ثقافي واحد لكي يعطي لقاؤهما ثراً جيداً . فنحن اليوم إذ نملك مصيرنا بأيدينا علينا ان نسعى الى تقدم حقيقي لا إلى

المهازيل المتطرفة التي تدعو إليها بعض فتياتنا .

« وقد نتساءل عن الطريق التي يجب اتباعها ، أتكون في تقليد دولة مرت بنفس التجربة التي مررنا بها ؟ أم باتباع وسائل وحلول تنبع من صميم خصائصنا ؟ ففي رأينا يجب ، في خطوة أولى ، تأليف لجان نسائية تدرس أوضاع المرأة التونسية في جميع المناطق وتحاول تطوير أولئك النسوة اللواتي لم يذهبن إلى مدرسة بشكل يتناسب وواقعهن الاجتماعي ودرجة وعيهن الثقافي . فأولئك الفتيات اللواتي لن يتيسر لهن الآن ان يتقنن في المدارس يجب إعطاؤهن دروساً في الشؤون المنزلية والحياطة وإدارة شؤون البيت والعناية الصحية فتسد بذلك بعض الثغرات في تربيتهن .

« وقد تلقى نهضة كهذه مقاومة في بعض الاوساط ، غير ان حكومة مسؤولة تقدر واجبها حق التقدير ، عليها ان تربل الاوهام والتقاليد المضرة من حياة شعبها وتفكيره وتمضي قدماً غير آبهة لاية مقاومة رجعية » .

وفي سنة ١٩٥٦ أثرت هذه الجهود وظهرت للعيان في قانون الاحوال الشخصية الذي استصدره الحبيب بورقيبة ورفاقه وأرادوه حجر الزاوية في حياة تونس الديمقراطية الجديدة . وهكذا تخلص التونسي من عبودية ١٢٠٠ سنة من التقاليد ، ومن استعمار غربي دام مئة عام ، إذ جاءت القوانين الوطنية والعلمانية الجديدة لتجعل من المؤمن مواطناً قبل ان يكون شيئاً آخر ، ومن المستعبد حراً . وأثارت تلك القوانين ضجة كبرى

في سائر البلاد الاسلامية .

وقد خصصت البنود الثلاثة الاولى من قانون الاحوال الشخصية لتحرير المرأة من قيود التقاليد التي كانت تروح تحتها ، وهي تمنحها حريتها بنصوص مستاة من أحدث القوانين العالمية . فبمدة لا تتجاوز السنة انتصرت الحركة النسائية التونسية لانها لقيت في أبي رقية نصيراً آزرها في تحرير المرأة من العتوات التاريخية التي كانت تعترضها .

وأعلن عن قانون الاحوال الشخصية هذا في خطاب للرئيس بورقية على أثر صدوره في الجريدة الرسمية في ١٣ آب سنة ١٩٥٦ ليصبح ساري المفعول ابتداء من أول كانون الاول سنة ١٩٥٧ . وأهم محتوياته تتعلق :

— بتبديل قواعد الزواج .

— وإلغاء تعدد الزوجات .

— وتحضير المهجر ، وتنظيم شروط الطلاق .

— وأخيراً بتنظيم علاقات النسب والارث والتملك .

فالسنة الدينية التي ما تزال متبعة في بعض البلدان الاسلامية التي أتينا على ذكرها قد استبدلت ظاهرياً في تونس بقوانين علمانية . أما الواقع فهو ان بورقية إذ أدرك ان شعبه لن يستطيع مجازاة ركب الحضارة الحديثة بما لديه من تقاليد قديمة ، لم يذهب ، ككمال أتاتورك ، إلى حد خرق حرمة السنن الدينية ، بل تناول بعض الآيات القرآنية التي تجاهلها المسلمون قديماً ، ففسرها تفسيراً حديثاً وأخرج منها عن معاني وسنناً تقديمية تجاري

روح العصر .

وفد برّر بورقية تحظيره لتعدد الزوجات بالآية التي تقول : « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » . وزاد قائلاً إنه لمن الظلم التعلق بامرأة لأسباب مادية خالصة والخط من قدر الانسان في جمع أكثر من زوجة تحت سقف واحد وعدم إشباع القلب والروح كما إشباع الجسد .

كان لا بد من رجل فذّ كهذا لاعلان تلك الحقيقة وإعطاء التفسير الصحيح للآية القرآنية الكريمة . ومن خطاب بورقية التاريخي المشهور قوله :

« نحن لا نريد أن نرفع من مستوى المرأة فحسب ، ولكننا نريد توطيد العلاقات الزوجية الطيبة ، وتأمين الراحة والجو الملائم لأفضل تربية للأطفال » .

وفي تنظيم الطلاق فرض تبادل الرضي والمحاكمة كشرطين أساسيين لإحلاله بما حدّ من سهولة الطلاق الاولى والمهجر لمجرد عدم الرغبة في الزوجة .

غير أنه في فترة الاربعة أشهر التي سبقت تنفيذ القوانين الجديدة نهافت الكثيرون على الطلاق متذرعين بحجج واهية ، كقذارة سجاد المنزل او سوء طهي الطعام ، خوفاً من أن لا يتمكنوا في ما بعد من التخلص من زوجاتهم .

وقد شجعت تلك الموجة الثورية الرئيس بورقية فأصدر قراراً يحظر فيه لبس القناع . لكن هذا القرار لاقى مقاومة شديدة عند العديد من الأهليين . وإذا كان قرار بورقية لم ينفذ

بعد كما يجب ، فمرجع ذلك الى المقاومة الشديدة التي تلقاها الفتيات من أهلن في الظهور سافرات. فالفتيات قد استقبلن ثورة بورقية تلك بحماس شديد بالرغم من المقاومة التقليدية التي تبديها أمهاتهن. وكثيراً ما نراهن في بعض المدن المحافظة يخرجن مقنعات من البيوت ، ثم ما يلبثن أن ينزعن الأقنعة عندما يسرن في الشوارع .

أما طالبات المدارس فلا يتقنعن مطلقاً ، وباستطاعتهم أن يتمتعن اليوم بحرية تامة في اختيار أزواجهن عند بلوغهن العشرين من عمرهن . ومع كل ذلك ، فغالباً ما نرى الفتيات التونسيات السافرات مطرقات في الشوارع إذ أنهن يفتقرن بعد الى التدريب على ممارسة الحرية . وقد ترى البعض يخرجن مقنعات برضاهن إذ أن آبائهن قد وضعوهن في مأزق حرج فعليهن إما أن يسفرن ويبقن في البيت ، وإما أن يتقنعن ويخرجن الى المدارس ، فاخترن جميعاً الحل الأخير لما فيه من خير لمستقبل بيوتهن .

ومقابل ذلك نرى بعض التونسيين يجبرون زوجاتهم وفتياتهم على السفور ، ويدفعونهن الى الاشتراك في المظاهرات العامة والاجتماعات السياسية . وقد نشطت أولئك الفتيات تعاضدهن طليعة التونسيين باخلاص عجيب ، الى تأسيس الجمعيات النسائية الثقافية والاجتماعية ، والحركات الكشفية والرياضية ، والى محاربة الأمية بتعليم الدروس المجانية على جميع الفتيات من بنات المدن والقرى .

خاتمة الكتاب

إن القارئ الذي يطلب مني خاتمة لهذا الكتاب يطلب مستجيلاً ، لأنني إذا أردت أن أظهر تطور المسألة فإن هذا التطور لم يبلغ أوجه بعد ، لكي تصبح خاتمة الحديث عنه مستطاعة . أما ما يمكن تأكيده الآن فيلخص بأن موجة من التحرر النسائية تجتاح اليوم العالم الاسلامي بأمره معلنة عن نهضة جبارة مترجع بالمسلمين من جديد إلى حلبة العطاء الانساني .



ملحق

مجلة الاحوال الشخصية التونسية

الفصل ١ - كل من الوعد بالزواج والمواعدة به لا يعتبر زواجاً ولا يقضى به .

الفصل ٢ - يسترد الخاطب الهدايا التي يقدمها إلى خطيبته إلا إذا كان العدول من قبله أو إذا وجد شرط خاص .

الفصل ٣ - لا ينعقد الزواج إلا برضا الزوجين ويشترط لصحة الزواج إشهاد شاهدين من أهل الثقة وتسمية مهر للزوجة .
الفصل ٤ - لا يثبت الزواج إلا بحجة رسمية يضبطها قانون خاص . أما بالنسبة للزواج المنعقد خارج المملكة فإنه يثبت بما تعتمد عليه قوانين البلاد التي تم فيها العقد .

الفصل ٥ - يجب أن يكون كل من الزوجين بالغاً خالياً من الموانع الشرعية ويقدر سن البلوغ بالنسبة للمرأة بتمام الخامسة عشرة وللرجل بتمام الثامنة عشرة . وزواج أحدهما دون السن المقدرة يتوقف على إذن خاص من الحاكم وذلك بعد ثبوت البلوغ الطبيعي .

الفصل ٦ - زواج الرجل أو المرأة اللذين لم يبلغا سن الرشد القانوني يتوقف على موافقة الولي ، فإن امتنع الولي من هذه الموافقة ونسك كل برغبته لزم رفع الأمر للحاكم .

الفصل ٧ - زواج المحجور عليه لفسه لا يكون صحيحاً إلا بعد موافقة المحجور له . وللمحجور له أن يطلب من الحاكم فسخه قبل البناء .

الفصل ٨ - الولي هو العاصب بالنسب ويجب أن يكون عاقلاً ذكراً رشيداً . والقاصر ذكراً كان أو أنثى وليه وجوباً أبوه أو من ينيبه . والحاكم ولي من لا ولي له .

الفصل ٩ - للزوج والزوجة أن يتوليا عقد زواجهما بأنفسهما وأن يوكلاه من شاءا وللولي حق التوكيل أيضاً .

الفصل ١٠ - لا يشترط في وكيل الزواج المشار إليه في الفصل السابق شرط خاص ولكن ليس له أن يوكل غيره بدون إذن موكله أو موكلته . ويجب أن يحور التوكيل في حجة رسمية ويتضمن صراحة تعيين الزوجين وإلا عدت باطلاً .

خيار الشوط

الفصل ١١ - يثبت في الزواج خيار الشوط ويترب على عدم وجوده أو على مخالفته إمكان طلب الفسخ بطلاق من غير أن يترب على الفسخ أي غرم إذا كان الطلاق قبل البناء .

المهر

الفصل ١٢ - كل ما كان مباحاً ومقوماً بمال تصلح تسميته

مهرًا ، ويجب أن لا يكون تافهاً ولا حدة لأكثره ، وهو ملك للمرأة تتصرف به كيف شاءت .

الفصل ١٣ - ليس للزوج أن يجبر المرأة على البناء إذا لم يدفع المهر ، ويعتبر المهر بعد البناء ديناً في الذمة لا يتسنى للمرأة إلا المطالبة به فقط ولا يترتب عن تعذر الوفاء به الطلاق .

موانع الزواج

الفصل ١٤ - موانع الزواج قسمان : مؤبدة وموقته .
فالمؤبدة هي : القرابة أو المصاهرة أو الرضاع أو التطليق ثلاثاً .
والموقته هي : تعلق حق الغير بزواج أو عدة .

الفصل ١٥ - المحرمات بالقرابة : أصول الرجل وفصوله ، وفصول أول أصوله ، وأول فصل من كل أصل وإن علا .

الفصل ١٦ - المحرمات بالمصاهرة : أصول الزوجات بمجرد العقد وفصولهن بشرط الدخول بالأُم وزوجات الآباء وإن علوا وزوجات الأولاد وإن سفلوا بمجرد العقد .

الفصل ١٧ - يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب والمصاهرة .
ويقدر الطفل الرضيع خاصة ، دون إخوته وأخواته ، ولدًا للرضعة وزوجها ولا يمنع الرضاع من الزواج إلا إذا حصل في الحولين الأولين .

الفصل ١٨ - تعدد الزوجات ممنوع . والتزوج بأكثر من واحدة يستوجب عقاباً بالسجن مدة عام .

الفصل ١٩ - يحظر على الرجل أن يتزوج مطلقة ثلاثاً .
الفصل ٢٠ - يحظر التزوج بزوجة الغير أو معتدته قبل انقضاء عدتها .

في الزواج الفاسد وما يترتب عليه

الفصل ٢١ - الزواج الفاسد هو الذي اقترن بشرط يتنافى مع جوهر العقد ، أو انعقد بدون مراعاة أحكام الفقرة الأولى من الفصل الثالث والفقرة الأولى من الفصول ٥ و ١٥ و ١٦ و ١٧ و ١٩ و ٢٠ من هذه المجلة .

الفصل ٢٢ - يبطل الزواج الفاسد وجوباً بدوق طلاق ولا يترتب على مجرد العقد أي أثر ويترتب على الدخول الآثار التالية فقط :

أ - استحقاق المرأة المهر المسمى ، أو تعيين مهر لها من طرف الحاكم .

ب - ثبوت النسب .

ج - وجوب العدة على الزوجة وتبتدىء هذه العدة من التفريق .

فيما يجب لكل من الزوجين على صاحبه

الفصل ٢٣ - على الزوج أن يعامل زوجته بالمعروف ويحسن عشرتها ويتجنب إلحاق الضرر بها وأن ينفق عليها وعلى أولاده منها على قدر حاله وحالها في عامة الشؤون المشمولة في حقيقة

النفقة ، والزوجة تساهم في الانفاق على العائلة إن كان لها مال .
وعلى الزوجة أن ترعى زوجها باعتباره رئيس العائلة وتطيعه فيما
يأمرها به في هذه الحقوق وتقوم بواجباتها الزوجية حسبما يقتضيه
العرف والعادة .

الفصل ٢٤ - لا ولاية للزوج على أموال زوجته .

في التنازع بين الزوجين

الفصل ٢٥ - إذا شك أحد الزوجين من الإضرار به ولا
بيته له وأشكل على الحاكم تعيين الضرر بصاحبه يعين حكيمين .
وعلى الحكيمين أن ينظرا فإن قدرا على الإصلاح أصلحا . وهما
يرفعان الأمر إلى الحاكم في كل الأحوال .

الفصل ٢٦ - إذا اختلف الزوجان في متاع البيت ولا بيته
لها فالقول للزوج بيمينه في المعتاد للرجال ، وللزوجة بيمينها في
المعتاد للنساء . وإن كان من البضائع التجارية فهو لمن يتعاطى
التجارة بينهما بيمينه .
أما في المعتاد للرجال والنساء معاً فيختلف فيه كل منهما
ويقتسمانه .

الفصل ٢٧ - إذا مات أحد الزوجين ووقع النزاع في متاع
البيت بين الحي وورثة الميت كان حكم الوارث حكم الموروث في
الفصل المتقدم .

الفصل ٢٨ - الهدايا التي يعطيها الزوج للزوجة بعد العقد
يسترد ما بقي منها قائماً ولو تغير إذا وقع الفسخ قبل البناء بسبب

منها ، ولا يسترجع منها شيئاً بعد الدخول .

الكتاب الثاني في الطلاق

الفصل ٢٩ - الطلاق هو حل عقد الزواج .

الفصل ٣٠ - لا يقع الطلاق إلا لدى المحكمة .

الفصل ٣١ - يحكم بالطلاق :

١ - بناء على طلب من الزوج أو الزوجة للأسباب المبينة بفصول
هذه المجلة .

٢ - بتراضي الزوجين .

٣ - أو عند رغبة الزوج انشاء الطلاق أو مطالبة الزوجة به .
وفي هذه الصورة يقدر الحاكم ما تبتاع به الزوجة من
الغرامات المالية لتعويض الضرر الحاصل لها أو ما تدفعه هي
للزوج من التعويضات .

الفصل ٣٢ - لا يحكم بالطلاق إلا بعد أن يبذل الحاكم وسعه
في البحث عن أسباب الشقاق بين الزوجين والعجز عن الإصلاح
بينهما . وللاحكام أن يتخذ جميع الوسائل المتأكدة فيما يخص سكنى
الزوجين والنفقة ورعاية الأطفال .

الفصل ٣٣ - إذا وقع الطلاق قبل الدخول فللزوجة نصف
المسمى من المهر .

الكتاب الثالث في العدة

الفصل ٣٤ - يجب على كل امرأة فارقها زوجها بطلاق بعد

فهرست

صفحة	
٥	كلمة الدار
٧	اختباران ذاتيان
٣١	وضع المرأة في البلاد الاسلامية المحافظة
٣٧	الولادة والطفولة
٤١	الزواج ، الحرم ، الطلاق
٥٠	المرأة في اليمن
٥٤	المرأة في مصر والشرق الاوسط
٦٩	المرأة في الباكستان
٨٧	المرأة التركية
١٠٤	المرأة المسلمة البلقانية
١١٦	المرأة في آسيا الاسلامية السوفياتية
١٣٣	حياة المرأة في شمال افريقيا
	المرأة المراكشية
١٥٥	النساء الجزائريات الصحراويات
١٧٣	المرأة التونسية
١٨١	خاتمة الكتاب
١٨٢	ملحق من مجلة الاحوال الشخصية التونسية

الدخول أو مات عنها قبل الدخول أو بعد أن تتربص مدة العدة المبينة بالفصل الآتي .

الفصل ٣٥ - تعتد المطلقة غير الحامل مدة ثلاثة أشهر كاملة . وتعتد المتوفي عنها زوجها مدة أربعة أشهر وعشرة أيام كاملة . أما الحامل فعدتها وضع حملها ، وأقصى مدة الحمل سنة من تاريخ الطلاق أو تاريخ الوفاة .

الفصل ٣٦ - تعتد زوجة المفقود عدة الوفاة بعد صدور الحكم بفقدانه .

*

صدر عن دار الروائع

المسردون

تأليف
مكسيم غوركين

ترتيب
جورج جرداق

رسائل غاندي

إلى

حلفاء الميراثيين

من منشورات دار الروائع

اللاعنف

ثورة الانسانيين في سبيل عالم جديد

بقلم الفيلسوف الهندي

أشاريا فينوبا

كتاب الجيل المثقف المؤمن بالقيم الانسانية
والمثل العليا

الكتاب الذي يتهاافت ابناء العالمين القديم والجديد على
زيارة مؤلفه ، والاستماع إليه ، والاعجاب بثورته
الانسانية الجديدة التي ستقلب مفاهيم السياسة والاجتماع
الحديثة .

من منشورات دار الروائع

قصور وأكواخ

فصول اختارها وعرضها وعلق عليها بأسلوبه الرشيق
ال جذاب الذي يجمل القارىء قسراً على مطالعته ،
الاديب الكبير :

جورج جرّان

كتاب من روايات هنري تروايتا ومارك توين يعرض
مشاهد طريفة من الحياة في المجتمع الاميركي . من مواضيعه :
بنات الغلاف ، البنات التاكسي ، بنات الملاهي ، بنات
الليل ، أعقاب السجائر ، بيوت الزوج ، ملاهي الزوج ،
كنائس الاسود ، الاولاد الشياطين ، اساليب التعليم ،
مهازل الصحافة ، مهازل الدعاية ، مهازل الايمان ...

مطبعة الجهاد - بيروت تلفون : ٣٣٥٤٢